المُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين،،،

وبعد،،

فإن كلام النبي (ﷺ) هو "الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف ... استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق.

وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ... لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أصدق لفظا ... ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه (ﷺ)"[(١)].

وهو أحد مصدري هداية هذه الأمة، وأحد أسباب نهضتها وتقدمها، لقول نبينا المكرم (ﷺ) «**إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[(٢)].

ومن ثم عُنِيَ كثيرٌ من العلماء في مختلف التخصصات ببيان النبي (ﷺ)، وكان للبلاغيين حظ وافر من هذه العناية، وقد شرفني الله تعالى بصحبة هذا البيان المعجز ومعايشته في مرحلة الماجستير، فأفدت منه إفادات عظيمة،

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢٢١ – الطبعة الأولى ١٩٦٨م- دار صعب – بيروت.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك برقم ٣١٩، والبيهقي في سننه برقم ٢٠٨٣٤، والدارقطني في سننه برقم٤٦٠٦.

وتزودت منه بزاد بلاغي، وزاد شرعي، واطلعت في أثناء رحلتي معه على كثير من الموضوعات التي تحتاج مزيدا من الوقوف معها بالدرس والتحليل.

وكان من ثمار ذلك أنني أتطلع منذ حينٍ إلى دراسة بيانه (ﷺ) عن الفتن، بقصد استجلاء بعض أسراره، وبيان أوجه إعجازه، ورصد الخصائص البلاغية لحديثه (ﷺ) في هذا الموضوع، الذي تحتاجه الأمة الإسلامية في وقتها الحاضر، حيث أخذت الفتن تطل برؤوسها، فدب الانقسام والاقتتال بين أبنائها، وكثر الخبث المؤذن بالهلاك، واتخذ بعض الناس رؤوسا جهالا، وأعجب كل ذي رأي برأيه، وغير ذلك مما حذر منه المعصوم (ﷺ) ونهى عنه.

ولما كان توجهي أن أختار في بحوثي العلمية ما ينفع المسلمين عامة، والبلاغيين خاصة، تملكتني الرغبة في إتمام هذا العمل، فيممتُ وجهي شطر صحيح مسلم؛ لما يمتاز به من جمع طرق الحديث بأسانيده المتعددة ورواياته المختلفة في مكان واحد، ولأنه لم يحظ بما حظي به صحيح البخاري من عناية واهتمام، ولعلمي أن ثمة دراسة بلاغية قامت حول هذا الموضوع في صحيح البخاري.

ومن ثم جمعت منه عشرين حديثا من أحاديث الفتن، كانت مادة النظر والتحليل والتأويل والتعليل والمقارنة، وهي روافد المنهج التحليلي، الذي اختارته هذه الدراسة لنفسها، والذي أوجب عليها بعد جمع الأحاديث أن تقوم بتقسيمها حسب الأغراض المقصودة منها، وأن تتوقف مع كل حديث مبرزة ما فيه من فنون بلاغية، وخصائص أسلوبية، فضل الرسول(ﷺ) استعمالها؛ لما لها من أثر في تحقيق الغرض المنصوب له البيان، مع إبراز ما في ذلك من بديع المعاني وعظيم التوجيهات وبليغ العبر والعظات، التي تحتاجها الأمة المسلمة، لتضبط أقوالها وأفعالها في زمن الفتنة والبهتان.

كما كان للدراسة اهتمام ببيان ما يترتب على مجيء التعبير بأساليب أو فنون غير التي اصطفاها الرسول (ﷺ)، لتؤكد مع كل محاولة عدم وفاء التعبيرات والأساليب المناظرة بالمعاني التي يقصد إليها رسول الله (ﷺ) من حديثه، هذا بجانب ما حرصت عليه الدراسة من الوقوف مع روايات بعض الأحاديث، بهدف إبراز فوائد التعبير في كل رواية، والغرض الذي من أجله اختلفت رواياتها.

وقد أفضى ذلك المنهج إلى أن يأتي هذا العمل في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

- **المقدمة:** كانت لتوضيح الأسباب الدافعة إلى بحث هذا الموضوع، مع بيان المنهج المتبع في دراسته.
- وجاء **المبحث الأول** بعنوان: **الخصائص البلاغية في الدعوة إلى الاستعداد للفتن.**
- و**المبحث الثاني** بعنوان: **الخصائص البلاغية في التعريف بأسباب الفتن، والتحذير من إثارتها أو المشاركة فيها.**
- **أما المبحث الثالث** فعنوانه: **الخصائص البلاغية في التوجيه إلى ما يجب فعله عند وقوع الفتن.**
- وجاءت **الخاتمة** مشتملة على أهم النتائج والتوصيات التي توصل البحث إليها.

ولم يفت الدراسة أن تتوقف بعد المقدمة مع **تعريف الفتن** لغويا واصطلاحيا بإيجاز شديد، لأن هذا المعنى هو الذي ستصحبه معها في أثناء رحلة البحث والتحليل.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون لبنة صالحة في فهم بيان الرسول (ﷺ) عن الفتن، وأن يغفر لي ما كان من تقصير في الوفاء بحق هذا الموضوع، الذي لا أزعم أني قمت بكامل حقه، ولكني أوقن أني قمت له، وأراه جديرا بأن تُشمر له السواعد، و تعكف عليه عقولُ ذوي البلاغة والبيان، لإيضاح ما فيه من معان وتوجيهات، خدمةً للأمة الإسلامية فيما تمر به من ظروف عصيبة، ووفاءً بحق العلم.

وما كان من توفيقٍ فمن الله (ﷻ)، وما كان من تقصيرٍ فمن نفسي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دكتور

صبحي إبراهيم عفيفي المليجي

تعريف الفتن

الفتن جمع فتنة، يقول ابن فارس: "الفاء والتاء والنون أصلٌ صحيح يدلُّ على ابتلاء واختبار، من ذلك الفِتْنة، يقال: فتَنْتُ أفتِنُ فَتْناً، وفَتَنْتُ الذّهبَ بالنّار، إذا امتحنتَه، وهو مفتونٌ وفَتِين. والفَتَّان: الشَّيطان. ويقال: فتنه وأفْتَنَه ... وأنشُدوا في أفتِن:

لَئِنْ أفتنَتْني لَهْيَ بالأمسِ أفْتَنَت سعيدًا فأضْحَى قد قَلى كلَّ مسلمِ

ويقال: قلبٌ فاتن، أي مفتون، قال:

رخِيمُ الكلامِ قَطِيع القيا مِ أضْحَى فؤادِي به فاتِنا[1]

وقال الخليل: الفَتْن: الإحراق. وشيءٌ فتين: أي مُحْرَق ... والفِتْنةُ: العَذاب، والفِتنةُ: أن يَفتِنَ الله قوماً أي يَبْتَليهم، والفِتْنُ: ما يقع بين الناس من الحروب ... والفَتّان: الشيطان، والفُتّانُ: جماعة[2].

ويقول ابن منظور: جِماعُ معنى الفِتْنة: الابتلاء والامْتِحانُ والاختبار، وأَصلها مأْخوذ من قولك: فتَنْتُ الفضة والذهب إِذا أَذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيِّدِ، وفي الصحاح إِذا أَدخلته النار لتنظر ما جَوْدَتُه ... والفَتْنُ الإِحْراقُ، ومن هذا قوله (ﷻ) "يومَ هم على النارِ يُفْتَنُونَ" أَي: يُحْرَقون بالنار، ويسمى الصائغ: الفَتَّان، وكذلك الشيطان، ومن هذا قيل للحجارة السُّود التي كأَنها أُحْرِقَتْ بالنار: الفَتِينُ ... والفِتْنة: الاختبار، والفِتْنة: المِحْنة، والفِتْنة: المال، والفِتْنة: الأَوْلادُ، والفِتْنة: الكُفْرُ، والفِتْنةُ: اختلافُ الناس بالآراء، والفِتْنةُ:

---

(١) مقاييس اللغة لأحمد بن فارس تحقيق عبدالسلام هارون – مادة فتن – طبعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م– نشر اتحاد الكتاب العرب.

(٢) العين للخليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق المخزومي والسامرائي – مادة فتن – دار ومكتبة الهلال.

الإحراق بالنار، وقيل الفِتْنة في التأْويل: الظُّلْم، يقال: فلان مَفْتُونٌ بطلب الدنيا: قد غَلا في طلبها [١].

وعلى ذلك يمكن تعريف الفتن بأنها: **أنواع مختلفة من الامتحانات والابتلاءات يريد الله تعالى بها تمحيص الناس عامة، والمؤمنين خاصة، وإظهار مدى قوة عقيدتهم، وقياس مدى تمسكهم أو التزامهم بشريعتهم**، قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾(العنكبوت٢)، معبرا بالاستفهام الذي يقصد – بجانب الإثارة والتنبيه – "إنكار الحُسبانِ المذكور واستبعاده، وتحقيق أنَّ اللهَ تعالى يمتحنُهم بمشاقِّ التَّكاليفِ، كالمهاجرةِ، والمجاهدة، ورفضِ ما تشتهيهِ النَّفسُ، ووظائفِ الطَّاعاتِ، وفنونِ المصائبِ في الأنفسِ والأموالِ؛ ليتميَّز المخلصُ من المنافقِ والرَّاسخُ في الدِّينِ من المتزلزلِ فيه، ويجازيَهم بحسبِ مراتبِ أعمالِهم"[٢].

وعُبر عنها في البيان النبوي بألفاظ فتن، وفتنة، والفتنة، وبلاء، وأمور منكرة، وشر، وزوال الأمانة، والتحريش، والقتال، والخراب، وغير ذلك مما سيتم الوقوف عليه.

(١) لسان العرب لابن منظور– مادة فتن– الطبعة الأولى – دار صادر بيروت.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي ٢٤٨/٥– دار إحياء التراث العربي – بيروت.

المبحث الأول

الخصائص البلاغية في الدعوة إلى الاستعداد للفتن

- **عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»**(١).

وفيه أمر النبي (ﷺ) المسلمين بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل مجيء الفتن، الشاغلة لهم عنها، لما لهذه الأعمال من أثر في تبصير القلب بحقائق الفتن، ومن ثم معرفته بها وإنكاره لها، وذلك في قوله (ﷺ) في أول الحديث "**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ**"، ولهذا الأمر من الخصائص البلاغية ما يلي:

أولا: أن تقديمه أو البدء به يجعله مناط القصد من البيان النبوي، يقول الإمام عبدالقاهر الجرجاني: "واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام، يقول صاحب الكتاب: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى"(٢)، وهذا ما دفع شراح الحديث إلى القول بأن المقصود منه "الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة"(٣).

---

(١) صحيح مسلم / باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، برقم ٣٢٨- ٧٦/١ – دار الجيل – بيروت.

(٢) دلائل الإعجاز – عبدالقاهر الجرجاني – تحقيق محمود شاكر ١٠٧- الطبعة الثالثة – ١٤١٣هـ/١٩٩٢م – مطبعة المدني – السعودية.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ١٣٣/٢- الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ – دار إحياء التراث العربي – بيروت.

ثانيا: أنه جاء بصيغة المفاعلة، التي تقتضي المسارعة والمنافسة، للإشارة إلى أن أكثر الناس أمنا من تلك الفتن الشديدة المتراكمة هو أسرعهم مبادرة إلى الأعمال الصالحة، وأشدهم في التنافس عليها، كما أن في مادته الدالة على الإسراع والتبكير(١) إشارة إلى أن التسابق والإسراع لا بد أن يكون قبل زمان الفتن، وألا يتأخر المرء فيه حتى يدركه زمانها.

ثالثا: تعديته إلى المفعول بحرف الباء الدال على الإلصاق(٢)، ومجيء مفعوله "**الأعمال**" جمعا يتوسطه ألف المد، فيه إشعار بضرورة الانشغال بعمل الصالحات عن أي شيء آخر، وعدم الاكتفاء بقدر محدود منها، وأن القيام بها لا ينبغي أن يكون مقرونا بحصر أو عدٍّ أو استكثار.

رابعا: التعليل لهذا الأمر بما يزيد من التفاعل معه، ويدفع إلى الالتزام به، حيث أورد النبي (ﷺ) بعده ما يجيب عن سؤال يدور في نفس المتلقي حول سبب الأمر الناصح بالمبادرة إلى الأعمال، وذلك في قوله (ﷺ) "**فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ...**"، ومن ثم فصل عنه كما يفصل السؤال عن الجواب، فيما يعرف بشبه كمال الاتصال، الذي تتواصل فيه المعاني "من طريق أن الأولى تتولد منها الثانية، وكأنها أصل ينبثق منه فرع"(٣) وبه تبدو كل جملة موضوعة وضعا لا تحتاج فيه إلى ما قبلها، آتية مأتى ما ليس قبله كلام(٤)، وهى مع هذا الوضع مستقلة موصولة بالتي قبلها من حيث المعنى وصلا قويا، لا تحتاج معه إلى

---

(١) مقاييس اللغة – مادة بدر.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني لأبي القاسم المرادي– تحقيق/ فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل ٤– الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م – دار الآفاق الجديدة – بيروت.

(٣) دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى ٣٠٩ – الطبعة الثانية – ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧م – مكتبة وهبة.

(٤) دلائل الإعجاز ٢٣٦ بتصرف.

رابط[1]، هذا بجانب ما له من تأثير شديد في تحريك نفوس السامعين، وإثارة أذهانهم إلى فهم مقاصد الكلام وإدراك مراميه، والتفاعل مع ما فيه من أوامر وتوجيهات، كما أنه يبرهن على قوة الأسلوب وتناسق عباراته.

وكان لتنكير كلمة "**فتنا**" مع جمعها أثره في الإلماح إلى هول الفتن وخطورتها، لدرجة لا تستطيع العبارة الإحاطة بحقيقتها ولا بأنواعها، ولا بما يحدث للإنسان فيها، فهي فتن خطيرة شديدة، وفي الوقت نفسه قد تكون متنوعة، ولم تكشف العبارة عن هذه الأنواع، مما يجعل المتلقي يذهب فيها، وفيما يمكن أن يصيبه منها كل مذهب، إذ من الممكن أن تكون فتنته في الدين، ومن الممكن أن تكون في الأولاد، ومن الممكن أن تكون في المال، ومن الممكن أن تكون في نفسه، أو غير ذلك مما وضحه الذكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾(البقرة ١٥٥)، مما يوجب الاستجابة للأمر النبوي الناصح بالاستعداد لها.

وشبه النبي (ﷺ) الفتن بقطع الليل المظلم، ليشير إلى تتابعها وتراكمها، وليبرز مدى شدتها وخطورتها على المسلمين، وذلك واضح من إيثار التعبير بـــ "**قِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ**" على "الليل"، فكلمة "**قطع**" توحي بأن هذا الظلام متكاثف بعضه فوق بعض، وأنه قطع متراكبة متوالية، لا يستطيع المرء أن يبصر فيها شيئا، ولا يحدوه أمل في بصيص من النور، ومن ثم فإن الفتن التي يحذر منها النبي (ﷺ) ستكون مثلها في التوالي والتراكم، لا يكاد المرء يخرج من فتنة حتى تنزل به أخرى، ولن ينجيه منها إلا الأعمال الصالحة التي أمر النبي (ﷺ)

(١) دلالات التراكيب ٣٠٩.

بالمبادرة إليها، وكانت العبارة التشبيهية بمثابة التعليل لهذا الأمر، كما سبق ذكره.

ولو اقتصر التشبيه على "الليل" فقط لفات هذا المعنى القاصد إلى بيان مقدار حال المشبه، ولكان بيان حقيقة الفتن غير واف، على الرغم مما يشيعه التشبيه بالليل في نفس المتلقي من معاني الخوف والرعب والقلق والتوتر، وهو ما يظهر جليا في قول امرئ القيس:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ * عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطّى بِصُلْبِهِ * وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِ * بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فَيَالَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ * بِكُلِّ مَغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ[1]

وفي وصف "**الليل**" بـــ "**المظلم**" زيادة في التعريف بمقدار المشبه، وتأكيد لحقيقته، إذ لو خلا منه البيان لقل الخوف والفزع ولفتر حماس الناس نحو المبادرة إلى العمل الصالح، لما هو معروف من أن نور القمر يخفف من شدة الظلام في كثير من الليالي، ومن ثم كان من الممكن أن يسبق إلى الأفهام أن ثمة مخارج أو ملاذات أخرى غير العمل الصالح، يمكن أن يلجأ إليها الناس أو يلوذون بها للنجاة من تلك الفتن، ولذا كان لهذا الوصف أثره في تحقيق الغرض من التشبيه، يقول النووي – رحمه الله تعالى – "معنى الحديث: الحث على

(١) ديوان امرئ القيس ١/٥، ويراجع شرح المعلقات السبع للزوزني ٤٤ – الطبعة الأولى– دار إحياء التراث العربي.

المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر"[1].

ويلحظ أن جملة "**يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**" كانت بمثابة التأكيد أو البيان لما تضمنته جملة التشبيه من معان مثيرة مخيفة، ومن ثم فصلت عنها فيما يعرف بكمال الاتصال، الذي تتصل فيه الجمل اتصالا ذاتيا معنويا، تستغني به عن الواصل اللفظي.

وفيها قابل النبي (ﷺ) بين معنيين في قوله "**يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا**" ومعنيين آخرين في قوله "**وَيُمْسِي كَافِرًا**"، وكان لهذه المقابلة أثرها في بيان ما تحدثه الفتن في الناس، وإيضاح ما تفعله بهم، فقد بينت أن الواحد منهم – في ظلالها – سريعُ التقلب، كثيرُ التغير، لا يدوم على حال، ولا يثبت على وضع، لدرجة أنه يتغير بين الصباح والمساء أو العكس من الإيمان إلى الكفر، وكان لعطف طرف المقابلة الثاني على الأول بالواو الذي يفيد الجمع أثره في إبراز سرعة التقلب وشدة التغيير، حيث ألمح إلى أن الحالين وإن كانا متعاقبين إلا أنهما يبدوان وكأنهما متصاحبان.

ويلفت النظر تعبير النبي (ﷺ) بكلمة "**الرجل**" الموحية بالكمال في الخِلقة والخُلُق[2]، وتعبيره بكلمة "**مؤمنا**" دون "مسلما"، وهي أيضا تدل على ترقيه في مدارج هذا الدين من مرتبة المسلم إلى درجة المؤمن، مما يعني أن هذه الفتن لا

---

(١) المنهاج ١٣٣/٢.

(٢) يراجع نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي ج٥٩٢/٢ – ط ١٤١٥هـ– دار الكتب العلمية – بيروت، كما يراجع الرجولة في القرآن موقعا وبلاغة د. صبحي المليجي – بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية – العدد الثامن والعشرون – ١٧٦ – ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

يؤمن فيها على أحد، ولا ينبغي لرجل مؤمن أن يثق بنفسه خلالها، وأنه إذا كان هذا حال الرجل المؤمن، فكيف بمن هو دونه في الرجولية والإيمان؟! وهذا من شأنه أن يحقق ما يصبو إليه البيان النبوي من خوف الفتن، والاقتناع بضرورة المبادرة بالأعمال الصالحة قبل مجيء زمانها، بغية النجاة منها.

وفي قوله (ﷺ) "**يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**" شُبه الدين بسلعة تباع وتشترى، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو البيع، على سبيل الاستعارة المكنية، التي توضح قيمة الدين عند الناس في زمان الفتن، وأنه لا يعدو أن يكون كسلعة يتم الاستغناء عنها مقابل عَرَض زائل من أعراض الدنيا، مما يوحي بانقلاب الأوضاع وتبدل المفاهيم، لدرجة تجعل الغالي رخيصا والرخيص غاليا، يقويه ويؤكده الطباق بين "الدين" و "العرض"، بما يمثله الأول من قيمة عالية غالية، وبما يمثله الثاني من حقارة ودناءة، جاءت من مادته الدالة على سرعة الزوال، ومن تنكيره الدال على التحقير، وأوثر التعبير بـــ "**الدين**" للإلماح إلى سهولة بيع ما هو دونه مما يخص الإنسان، كالشرف وغيره.

ويمكن أن تكون الاستعارة في الفعل "**يَبِيعُ**"، حيث شُبه التنازل عن الدين والتفريط في ثوابته زمانَ الفتن بالبيع، بجامع الترك في كل، ثم استعير البيع للتفريط، واشتق منه يبيع بمعنى يفرط على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، التي تبرز قلة تمسك الناس بدينهم في زمن الفتن، وسهولة تفريطهم فيه.

وأيا كان نوع الاستعارة فإن لها أثرا واضحا في تعريف المخاطب بحقيقة ما تُحدثه الفتن في الناس، مما يدعو إلى ضرورة الاستعداد لها بالمبادرة إلى العمل الصالح؛ لئلا يحصل منهم شيءٌ من ذلك عند وقوعها.

*****

- **وعن حُذَيْفَةَ (رضي الله عنه) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَىُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»**[1].

في هذا الحديث تآزرت عدة أساليب بلاغية في تحقيق ما يقصد إليه الرسول (ﷺ) من بيان حقيقة الفتن، والدعوة إلى الاستعداد لها، حيث حفل **بثلاثة تشبيهات:**

أولها: في قوله (ﷺ) "**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا**"، حيث شبه النبي (ﷺ) عرض الفتن على القلوب (بمعنى: ظهورها لها واحدة بعد واحدة)[2] بعرض أعواد الحصير على صانعيها عودا عودا وقضيبا قضيبا، بجامع الكثرة والتتابع، وهو تشبيه يعطي فوائد جمة، أذكر منها:

أولا: بيان حال هذه الفتن، والتعريف بها، من أجل إعداد العدة لها.

ثانيا: الإلماح إلى ما فيها من شدة وصعوبة، تنبع من كثرتها وتتابعها.

ثالثا: الإشارة إلى أن الباعث إليها هو معرفة مواقف الناس منها، كما أن الباعث إلى استعراض الصناع عيدان الحصير هو التأكد من جودتها ومعرفة مدى صلاحيتها لأن تنظم في الحصير، وهو ما صرح به في الجمل التالية، والتي كان التشبيه أسلوبا رئيسا فيها.

---

(١) صحيح مسلم / باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين- برقم ٣٨٦- ٨٩/١ .

(٢) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض ٢٩٨/١.

ثانيها: في قوله (ﷺ) "**عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**"، حيث شبه الرسول (ﷺ) القلب الذي أنكر هذه الفتن ولم يتقبلها بالصفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء[1]، قال القاضي عياض: "ليس تشبيهه بالصفا بيانا لبياضه، لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه كالصفا"[2].

ومن ثم فإن الجامع بين المشبه والمشبه به في هذا التشبيه هو الثبات وعدم التأثر في كليهما، يؤكده ويقويه قوله (ﷺ) "**فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**"، والذي عبر فيه النبي (ﷺ) بالمضارع المسبوق بـــ حرف النفي "**لا**" المشير بجرسه المختوم بألف المد – المؤدي إلى إطلاق النفس – إلى امتداد عدم الضرر واتساعه على نحو يصعب الوقوف على مداه، وأوثر النفي على الإثبات، لما فيه من اتساع وإحاطة لا يمكن معها وجود احتمال لحصول ضرر من أي نوع، وهو ما يؤكده تنكير المسند إليه "**فتنة**" الدال على العموم والشمول، الذي يزيد من رفعة القلب الذي أنكر الفتن، ورفض الاشتراك فيها، كما يزيد من إثارة المخاطب إلى الحرص على إنكارها، للنجاة من كل أنواعها.
وأوثر التعبير بـــ"**لا تضره**" دون: لا تصيبه، للإلماح إلى أن الفتنة من الممكن أن تحدث في زمانه، وأن يصيبه شيء منها، لكن هذه الإصابة لن يترتب عليها أي نوع من الضرر، لا سيما في الدين، بمعنى: أنه سيخرج من كل فتنة يتعرض لها أكثر أيمانا، وأرسخ يقينا.

وجاء النبي (ﷺ) بقوله "**مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**"، لبيان مدة سلامة هذا القلب من الفتن، بعد أن ألمح إليها في النفي بـــ "**لا**"، ليكون في التصريح بعد

---

(١) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض ٢٩٩/١.
(٢) نفسه.

التلميح نوع من تأكيد المعنى وتقريره، بوروده مرتين، إحداهما عن طريق التلميح، والأخرى على سبيل التصريح.

وأوثر التعبير عن المسند إليه بـــ "**السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**" دون ما يُعبر به عن القلب أو صاحبه، كأن يقال مثلا: فلا تضره فتنة ما دام تحت السموات وعلى الأرض، للإشارة إلى أن صاحب هذا القلب سيكون في أمان من الفتن بكل أنواعها في أثناء حياته، وبعد مماته، ومن ثم لن يخشى عليه من فتنة الموت، وفتنة القبر وغيرهما من فتن الدنيا والآخرة، وهو ما لا يتحقق إذا جاء التعبير بغير ما هو عليه، وفيه من الترغيب ما لا يخفى.

ثالثها: في قوله **إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض** "**وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**"، حيث شبه النبي **إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض** القلب الأسود المربادّ[1] الذي أُشرب الفتن وشارك فيها أو تأثر بها بالكوز المجخي (المقلوب)، الذي لا يثبت فيه أي شيء من الماء، ووجه الشبه هو عدم حفظ ما يمكن الانتفاع به وتضييعه، وفيه كذلك إلماح إلى أن ذلك القلب قد خرج على الفطرة السوية وانحرف عنها، شأنه شأن الكوز المجخى الذي وضع على غير طبيعته.

قال القاضي عياض "ليس قوله "كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا" تشبيها لما تقدم من سواده، بل هو وصف آخر من أوصافه بأنه قُلب ونُكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة، مثَّله بالكوز المجخى، وبينه بقوله "لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا" ... فقد شبه القلب الذى لا يعي خيرا بالكوز المنحرف، الذي لا يثبت الماء فيه ...

---

(١) (الرُّبْدَةُ: الغُبرة؛ وقيل: لون إِلى الغبرة، وقيل :الرُّبْدَةُ والرُّبْدُ في النعام سواد مختلط، وقيل هو أَن يكون لونها كله سواداً؛ عن اللحياني، ظليم أَرْبَدُ ونعامة ربداءُ ورَمْداءُ: لونها كلون الرماد والجمع رُبْدٌ؛ وقال اللحياني :الرَّبداءُ السوداءً) لسان العرب – ربد.

ومعنى الحديث: أن الرجل إذا تبع هواه، وارتكب المعاصي دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز، إذا انكب انصب ما فيه، ولم يدخله شيء بعد ذلك"(١).

وهكذا كان التشبيه الأول في هذا الحديث ذا أثر رئيس في إيضاح خطر الفتن وإظهار مدى شدتها، بغرض تحذير المسلمين وحثهم على التزود بصالح الأعمال، من أجل حصول الأمن والنجاة في زمانها، وكان التشبيه الثاني لمدح النوع الأول من القلوب والترغيب فيه، وجاء التشبيه الثالث لذم الشخص المعبر به عنه والتنفير منه.

كما حفل هذا الحديث **بثلاث استعارات:**

الأولى: في قوله (ﷺ) "**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ**"، وهي استعارة مكنية، تحولت معها الفتن من شيء معنوي إلى شيء حسي، يتوالى ويظهر للناس واحدا تلو الآخر، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الفعل "تعرض"، للإشارة إلى أن هذه الفتن تتسم بالوضوح والظهور لجميع الناس، وأنها لا تخفى ولا تلتبس على أحد منهم، ومن ثم فإن إشرابها أو إنكارها يكون على بينة منها، ومعرفة تامة بها.

الثانية: في قوله (ﷺ) "**فَأَىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا**"، وهي استعارة تصريحية في الفعل "**أشربها**"، شبه فيها تمكن الفتن من القلب ورضاه بها بالإشراب، إذ المعنى: "دخلت فيه دخولا تاما وألزمها وحلت منه محل الشراب"(٢)، ثم استعير الفعل "أشرب" للتمكن، للإلماح إلى استساغة هذا النوع من القلوب للفتن، واستعذابه المشاركة فيها.

---

(١) إكمال المعلم ٢٩٩/١.

(٢) المنهاج ١٧٢/٢.

الثالثة: في قوله (ﷺ) "**فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**" استعارة مكنية تضفي على المعنى نوعا من الحركة التي تبرز ما عند الفتنة من إرادة ورغبة في عدم إلحاق الأذى بمن أنكرها ولم يسع إليها، حيث شبهت الفتنة بإنسان يرى ويشاهد الناس ويميز بين مواقفهم من الفتن إنكارا وقبولا، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه في قوله "لا تضره"، وكأن الفتنة قد أبصرت وتيقنت من إنكار صاحب هذا القلب لها، وعدم سعيه إليها، فانصرفت من نفسها عن إيذائه بأي شكل من الأشكال.

ويطالعنا **المجاز المرسل** في التعبير عن الناس بالقلوب في قوله (ﷺ) "**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ**"، ثم في تعبيره (ﷺ) عن الإنسان الذي يقبل الفتن بالقلب في قوله "**فَأَىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا**"، وأيضا تعبيره (ﷺ) عن الإنسان الذي أنكر الفتن بالقلب في قوله "**وَأَىُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا**"، والعلاقة هنا هي الجزئية، حيث أطلق الجزء وهو القلب، وأراد الكل وهو الإنسان.

وأوثر القلب بالذكر دون غيره من الأعضاء كالعقل مثلا، لأنه مناط الفتن ومقصدها، لما يتسم به من تقلب وتغير، حيث ما سمي باسمه إلا لتقلبه، وأيضا لما له من تأثير عظيم على كل أعضاء البدن، إذ هو المتحكم في أفعال البشر، لقول النبي (ﷺ) "**...أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**"(١).

وفي ذلك إلماح إلى ضرورة الاهتمام بتزكية القلب، والحرص على وصله بالله تعالى، بالإكثار من الأعمال الصالحة، التي تملؤه نورا يستطيع من خلاله

(١) صحيح البخاري / كتاب بدء الوحي- برقم ٥٢ – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م – دار الشعب – القاهرة، ومسلم / باب أخذ الحلال وترك الشبهات – برقم ٤١٧٨.

الثبات على الحق والإيمان، وإبصار الفتن بجميع أنواعها، ثم القيام بإنكارها، وعدم استشرافها، ومن ثم يسلم صاحبه منها ومن آثارها.

وفي هذا الحديث **كنّى** رسول الله (ﷺ) بالـــ "**تُكْتَة السَوْدَاء**" عن الضلال المتزايد، والتخبط المستمر، الذي يتسم به قلب من شارك في الفتن وتغلغل حبها فيه، حتى نزلت منه منزلة الشراب، الذي لا يستطيع الحياة بدونه، فهو مع كل فتنة يسعى فيها يزداد قلبه ضلالا، وتتسع في الوقت نفسه نسبة السواد فيه، وفي ذلك إنذار له، كي يرعوي ويرجع، لئلا يصيبه غضب من الله تعالى وسخط في الدنيا والآخرة.

كما **كنّى** رسول الله (ﷺ) بالـــ " **نُكْتَة البَيْضَاء**" عن التوفيق والهداية اللذين يتسم بهما قلب من أنكر الفتن ولم يشارك فيها، وتلك بشارة من الرسول (ﷺ) برضى الله تعالى عنه، وبرهان نجاة له من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

وكان لكل من **المقابلة والجمع مع التقسيم** أثره وشأنه في تحقيق الغرض المنصوب له البيان، حيث وردت فيه **أكثر من مقابلة:**

الأولى: في قوله (ﷺ) "**فَأَىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَىُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ**"، وفيه قابل النبي (ﷺ) بين "إشراب الفتن" وما يترتب عليه من سواد القلب والطمس عليه في الطرف الأول، وبين إنكار الفتن وما يترتب عليه من بياض القلب وتوفيقه إلى ما فيه الخير في الطرف الثاني.

وهي مقابلة تسعى إلى إرشاد المخاطب إلى ما يجب عليه فعله والقيام به عند حصول هذه الفتن ومشاهدته لها، من خلال عرضها موقفين متباينين، يمثل

أحدهما الاتجاه الصواب، بينما يمثل الآخر الاتجاه الخطأ، مع قرن كل واحد منهما بما يُرَغِّب فيه أو يُنَفِّر منه (١).

فتبدأ بذكر الأول – وهو القلب الذي أشرب حب الفتن – مقرونا بالسواد المكنى به عن الضلال والطمس المتزايد مع كل فتنة يسعى إليها أو يمشي فيها، ثم تثني بذكر الثاني – وهو القلب الذي أنكر الفتن ولم يسع إليها ولم يمش فيها، مقرونا بالبياض المكنى به عن التوفيق إلى الخير، مستعملة لذلك أسلوب الشرط الذي يزيد المعنى بيانا وإيضاحا، ويزيد من تطلع المخاطب وإثارته إلى معرفة ما يترتب على كل حالة من الحالتين، وذلك لاعتماده على جملتين تسمى الأولى جملة الشرط، والثانية جملة الجواب أو الجزاء.

هذا العرض المتقابل المقرون بما يرشد إلى الصواب، ويحذر من الخطأ من شأنه أن يترك لدى المخاطب اقتناعا تاما بالتزام إنكار الفتن واجتناب حبها أو الإسهام فيها، حتى لا يطمس على قلبه في ذلك الزمن العصيب، الذي يتطلب يقظة القلب وصحوته للنجاة من الفتن بكل أنواعها، والسلامة التامة مما يحدث خلالها.

الثانية: في قوله (ﷺ) "**حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**"، حيث قابل بين أربعة معان، اثنان في قوله "أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ

(١) بعض أساليب هذا الحديث تهدف إلي بيان ما يجب فعله عند وقوع الفتن، مما يوجب تناوله أيضا في المبحث الثالث، ولكني آثرت دراسته كاملا هنا، تجنبا لتجزئته وذكره في أكثر من موضع.

وَالأَرْضُ"، واثنان آخران في قوله "أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا..." ، ويلحظ في هذه المقابلة ما يلي:

أولا: أنها بدأت بذكر القلب الأبيض مع تشبيهه بالصفا، ترغيبا فيه، وتنبيها إلى أنه الأفضل، وأخرت ذكر القلب الأسود مع تشبيهه بالكوز المقلوب، تنفيرا منه، وتنبيها إلى أنه على خلاف ما يحب الشارع ويرضى.

ثانيا: أنها قابلت بين الأبيض والأسود، وهما لونان أصيلان في أساليب الطباق والمقابلة، ولكل منهما أثره البالغ في نفس المتلقي، إذ تنشرح النفس للون الأبيض، وتنقبض من اللون الأسود، مما يساعد على تحقيق الغرض المقصود من الحديث.

ثالثا: التعبير في أولها بقوله (ﷺ) "**تصير**" الموحي بالاستقرار والثبات وعدم التغير- يقول ابن فارس "الصاد والياء والراء أصلٌ صحيح، وهو المآلُ والمرجِع"(١)- مع تعديته بـــ"**على**" الموحي بالتمكن مما صار إليه - يشير إلى أن القلب إذا صار إلى واحد من هذين اللونين ثبت عليه وختم لصاحبه به، وأصبح من الصعب أن يتغير إلى غيره، وهذا من شأنه أن يزيد من الترغيب في النوع الأول، والتنفير والتخويف من النوع الثاني، لما في التراجع من صعوبة تكاد تصل إلى درجة الاستحالة.

رابعا: أنها وصفت كل واحد من الطرفين بجملة مطابقة لما يقابلها في المعنى دون اللفظ، لما يقوم به هذا الأسلوب التقابلي من الإيضاح والبيان مع الاحتفاظ لكل طرف بما يخصه، من غير تقيد بالألفاظ المتضادة التي قد لا تحقق الغرض المقصود من البيان والتعبير.

---

(١) مقاييس اللغة – مادة صير.

• فقد وصفت الطرف الأول (القلب الأبيض) بجملة "فلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ"، معبرة فيها بالمضارع المنفي بالحرف "**لا**" المختوم بالألف الذي يمتد معه النفس إلى أقصى مداه، مع تنكير المسند إليه "**فتنة**"، والمجيء بما يوضح المدى الزمني للضر المنفي في جملة "**مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**"، والتي تدل على انتفاء الضر عن هذا النوع حيا وميتا، وفي التعبير بالحرف "ما"، ومجيء "السماوات" جمعا يتوسطه الألف، وختم الجملة بلفظ "الأرض" الدال بجرسه السريع على حسم الأمر نوع من التناغم بين المعنى وجرس الألفاظ المعبرة عنه.

• كما أن في تصدير جملة الصفة بالفاء في قوله "**فلا تضره...**" الدال على السببية إيذانا بأن انتفاء الضر – أيا كان نوعه – في المدى الزمني الذي أشار إليه التعبير متوقف على إنكار القلب لهذه الفتن وعدم سعيه إليها بأي صورة من الصور، مما يزيد من الترغيب في هذا النوع الآمن من آثار الفتن إلى أن تزول السماوات والأرض بأمر المولى (ﷻ).

• كما وصفت المقابلة الطرف الثاني (القلب الأسود) بجملة "لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"، وهي صفة بنيت على المقابلة[1] بين أربعة معان، اثنان في قوله "**لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا**" وآخران في قوله "**لاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا**" مع التعبير في كل طرف بالمضارع المنفي بـــ "**لا**" الدال بجرسه على انتفاء الفعلين إلى أبعد مدى يمكن أن يتصوره الإنسان، كما أن فيه إشعارا بعدم تغيُّر هذا النوع من القلوب عن الوصف المذكور أبد الدهر، والعياذ بالله (ﷻ)، وفي تنكير المفعولين "**معروفا**" و "**منكرا**" نوع من التعميم الدال على

(١) هذه هي المقابلة الثالثة في الحديث الذي بين أيدينا، رأيت أن أتناولها ضـــمن المقابلـــة الثانية لأنها فرع عنها.

استواء نظرته إلى المعروف بجميع أشكاله، وتشابه رأيه في المنكر بكل أنواعه، مما يدل على شدة العمى، وعميق التخبط والضلال.

يؤكد ذلك عطف جملتي المقابلة بالواو التي تفيد المصاحبة، حيث إن فيه إشارة إلى أن هذا النوع من القلوب يتصف بالأمرين معا، فهو لا يعرف المعروف، وفي الوقت نفسه لا ينكر المنكر، ولو جاء البيان مقتصرا على الجملة الأولى لسبق إلى الفهم أنه لا يعرف المعروف، ولكنه ينكر المنكر، ولو اقتصر على الثانية لسبق إلى الفهم أنه لا ينكر المنكر ولكنه يعرف المعروف، مما يدل على أن السعي إلى الفتن والمشاركة فيها لا يجتث بذرة الخير من القلب، وذلك من شأنه ألا ينفر من هذا النوع، وهو على خلاف ما يقصد إليه الحديث الشريف.

ويأتي الاستثناء "**إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**" ليزيد من إيضاح صفة هذا القلب، حيث عبر فيه بالفعل "**أشرب**" للدلالة على تغلغل الهوى في نفس صاحبه، وحلوله منه محل الشراب، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية المؤذنة بغلبة الهوى والمصلحة على رأيه و رؤيته في حياته كلها، مما يؤكد شدة العمى، وعمق التخبط، وينفر المخاطب من أن يكون قلبه – الذي يعول عليه في زمن الفتن، لأن قبولها أو رفضها يكون بإيعاز منه – من هذا النوع، والعياذ بالله.

كما **جمع الرسول** (ﷺ) **ثم قسّم** في قوله: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى **الْقُلُوبِ** كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا **فَأَىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا** نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ **وَأَىُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا** نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ".

و**جمع ثم قسّم** أيضا في قوله: "حَتَّى تَصِيرَ عَلَى **قَلْبَيْنِ** عَلَى **أَبْيَضَ** مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ **أَسْوَدُ** مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ

مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"، وفي مجيء بيانه على هذه الطريقة الأسلوبية من الخصائص ما يلي:

أولا: تأكيد المعنى وتثبيته في الأذهان من خلال وروده مرتين، إحداهما على سبيل الجمع، والأخرى على سبيل التقسيم.

ثانيا: أنه استوفى جميع الأقسام في المرتين، فليس ثم قسم ثالث في التقسيم الأول، وليس هناك قسم ثالث في التقسيم الثاني، وحصرُ جميع الأقسام واستفاؤها بالذكر له أثر جليل في تثبيت المعاني وتمكينها، حيث يُحاط بالشيء من جميع جوانبه، فلا يبقى أمام العقل إلا التفكير فيما عرض عليه، واختيار الأصوب منه.

ثالثا: أنها قرنت كل قسم بما يليق به، كالنكتة السوداء، والنكتة البيضاء في التقسيم الأول، والتشبيه بالصفا، والتشبيه بالكوز المجخي في التقسيم الثاني، وفي ذلك من الترغيب والتنفير ما يساعد على تحقيق الغرض من التقسيم، الذي يتمثل – بجانب ما سبق ذكره – في نهي المسلمين عن أن يكونوا من النوع المذموم، ونصحهم بأن يكونوا من النوع المحمود.

فالنهي هنا جاء في صورة الخبر[1]، ووجه اختلافه عن النهي الصريح هو جمعه بين النهي وما ينفر منه، فيحدث عند المخاطب نوع من الاقتناع بضرورة

---

(١) جمهور أهل العلم على أن الخبر... قد يرد في سياق، فيفيد النهى ... كما في قوله تعالى: "**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً...**" (البقرة ٨٣)، فقوله "لا تَعْبُدُونَ" خبر يفيد معنى النهى، لأن قوله "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ" يشير إلى ما في هذا الميثاق من تكاليف تتنوع بين الأمر والنهى، وقوله "لا تعبدون" نهى عن عبادة غير الله (ﷻ) – يراجع المفتاح / ١٥٥، المطول / ٢٦٢، الكشاف ٣/ ٢١٣، شرح الكرماني على البخاري ١٩٩/٢٠ الطبعة الثانية – دار إحياء التراث العربي – بيروت، إرشاد الساري شرح صحيح البخاري للقسطلاني ٣٥٦/٨ – مطبعة بولاق – مصر.

اجتناب ما يفهم النهي عنه، وهو ما لا يتم إذا جاء النهي في صورته الصريحة، إذ من الأعلى – كما هي العادة في بيان الوحيين الحكيمين – مجيء ما يساعد على امتثال الأمر والنهي عند حصولهما أو بعده، لما في ذلك من فوائد جمة من ناحية الإقناع، ومن الناحية النفسية والتربوية(١).

*****

- **وعَنْ أم المؤمنين زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ زَوْجِ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَتْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) يَوْمًا فَزِعًا مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ». وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا. قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»(٢).**

السياق الذي جاء فيه هذا الحديث كاف في التحذير من الفتن، والدعوة إلى الاستعداد لها، ففزعُ النبي (ﷺ)، واحمرارُ وجهه، وتغيرُه عن الهدوء المُعتاد أن يُرى عليه، مع ترديده جملة التوحيد قبل إخباره بما ينذر بقرب قيام الساعة، وهو فتح جزء صغير من ردم يأجوج ومأجوج، فيه دعوة إلى التمسك بالدين، والعض على عقيدة التوحيد، استعدادا للموت وفتنته أو قيام الساعة وما يصاحبها من شدائد وأهوال في أية لحظة.

وفيه تآزر التنكير والإيضاح بعد الإبهام مع الفصل والشرط في الدعوة إلى الاستعداد للفتن والشدائد المؤذنة بقرب قيام الساعة.

حيث جاء التنكير في موضعين:

---

(١) أرى أننا في حاجة إلى دراسة تقف مع بناء الجملة الواقعة بعد الأمر والنهي في الوحيين الحكيمين، أو في كل منهما على انفراد، وهي دراسة قد أقوم بها أو أعين من يقوم لها.

(٢) صحيح مسلم / باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج – برقم ٧٤١٨– ٢٠/٦.

الأول: تنكير المبتدأ "**ويلٌ**" وهي كلمة عذاب وهلكة، تترك بمعناها وجرسها أثرا كبيرا من التهويل والتخويف، الذي تنخلع له القلوب المؤمنة، خشية حصول ما أنذر به النبي (ﷺ).

و"خص العرب بالذكر لأنهم أول من دخل في الإسلام، وللإنذار بأن الفتن إذا وقعت كان الهلاك أسرع إليهم"(١)، وربما يكون تخصيصهم لمعرفته (ﷺ) أنهم أهل اختلاف وتنافر.

الثاني: تنكير "**شر**" مع جره بـــ "**من**" التي تفيد التعليل(٢)، للتهويل والتفخيم، والإلماح إلى أنه شر لا تُعرف الآثار المترتبة عليه، ولا تستطيع العبارة الإحاطة به.

وفي التنكير كذلك نوع الإبهام الذي يثير المخاطب ويشوقه، إلى تلقي ما يوضح النكرة ويعرِّف بها- وهو قوله (ﷺ) "**فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**" - بذهن متفتح، ونفس متطلعة، فإذا ورد ما يتطلع إليه ثبت في ذهنه وتأكد، ومن ثم يتحقق الحذر، وتستعد النفس لحصول الهلاك والموت في أي وقت، ليُختم لها بخاتمة السعادة، وهو برهان حرص النبي (ﷺ) وإشفاقه على أمته.

يؤكد ذلك ويقويه مجي جملة "**فُتِحَ...**" مفصولة عما قبلها؛ لما يعرف بشبه كمال الاتصال، حيث إنها تجيب عن سؤال أثارته في نفس المخاطب جملة "**وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ**" وما سبقها من جملة التوحيد، وذلك من شأنه أن يجعل

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري – ابن حجر العسقلاني ١١/١٣(بتصرف)- طبعة ١٣٧٩هـ- دار المعرفة – بيروت.

(٢) الجنى الداني ٥٢.

الجواب عند مجيئه متمكنا في نفس المخاطب فضل تمكن، لأنه تلقاه بعد ترقب وإثارة.

وفي قوله (ﷺ) "**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**" اشترط النبي (ﷺ) لحصول الهلاك ووقوعه كثرة الخبث، وهو: كل ما ليس بطيب[١]، وقيل: المراد به هنا الفجور[٢]، وجيء بـــ "**إذا**" أداة للشرط؛ للإلماح إلى أن حصول الهلاك عند كثرة الخبث أمر محقق لا محالة، وسنة من سنن الله الكونية التي لا محيد عنها، قال تعالى ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ (الإسراء ١٦). مما يدفع إلى تجنب الخبث بجميع أشكاله، وعدم الوقوع في شيء منه، والاستعداد له بطيب الأعمال والأقوال، يقول ابن حجر "وهذا غاية في التحذير من الفتن والخوض فيها، والدعوة إلى الاستعداد لها"[٣].

*****

- **وعن أُسَامَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) أَشْرَفَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ ثُمَّ قَالَ «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّى لأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلاَلَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ»**[٤].

وفيه عبر النبي (ﷺ) بالاستفهام في قوله: "**هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟**"، وهو استفهام يقصِد منه الرسول (ﷺ) بجانب إثارة المخاطبين وتشويقهم، ولفت انتباههم إلى أهمية ما يأتي بعده– التهويلَ والتفخيمَ من شأن ما يراه، ويظهر أمامه.

---

(١) مقاييس اللغة – مادة خبث.

(٢) فتح الباري ١٠٨/١.

(٣) فتح الباري ١٠٨/١، ١٣/١٣.

(٤) صحيح مسلم / باب نزول الفتن كمواقع القطر– برقم ٧٤٢٧ –١٦٨/٨.

ويلحظ التعبير بالفعل المضارع "**أرى**" مع تأكيده بـــ إن واللام؛ لما فيه من دلالة على أن هذه الرؤية بصرية، وأن أماكن الفتن معروفة للنبي (ﷺ)، وفي تعبيره بالفعل "**ترون**" المسند إلى ضمير المخاطبين إلماح إلى قرب وقوع هذه الفتن، وإيذان برؤيتهم لها، يقويه التعبير بقوله (ﷺ) "**خِلاَلَ بُيُوتِكُمْ**"، الموحي بأنها ستقع بين بيوت المخاطبين، بمعنى أن بعضهم قد يشارك فيها، يقول النووي -رحمه الله تعالى -"وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم كوقعة الجمل، وصفين، والحرة، ومقتل عثمان، ومقتل الحسين (رضي الله عنهما) وغير ذلك، وفيه معجزة ظاهرة له (ﷺ)" [(١)].

وفيه شبه الرسول (ﷺ) مواقع الفتن أي: مواضعها بمواقع القطر في الكثرة والعموم، بمعنى: أنها ستكون كثيرة وستعم كل الناس، ولن تختص بها طائفة معينة، كما أن المطر يكون كثيرا، ولا يختص به قوم دون قوم، وفيه ضرب من التبصير بحقائق الفتن، والتحذير منها، والدعوة إلى الاستعداد لها، لا سيما إذا علم المخاطبون قرب وقوعها، وأنهم ليسوا بمأمن منها.

وفي التعبير عن المواضع بالـــ "**مواقع**" في قوله "**مَوَاقِعَ الْفِتَنِ**" إلماح إلى ما في الفتن من معاني المفاجأة والفزع والضرر، يقول ابن فارس "الواو والقاف والعين أصلٌ واحد يرجع إليه فروعُه، يدل على سقوط شيء، يقال: وقع الشيء وقوعا فهو واقع، والواقعة: القيامة، لأنها تقع بالخلق فتغشاهم"[(٢)]، ويمكن أن يكون إشارة إلى ما يقع فيها بين المخاطبين من قتال ومحاربة، فـــ "الوَقْعةُ والواقِعةُ صَدْمةُ الحرب وواقَعُوهم في القتالِ مُواقَعةً وَوِقاعاً، وقال الليث الوقْعَةُ

(١) المنهاج ٧/١٨.

(٢) مقاييس اللغة – مادة وقع.

في الحرب صَدْمةٌ بعد صَدْمةٍ، ووَقائِعُ العرب أَيّامُ حُرُوبِهم، والوِقاعُ المُواقَعةُ في الحَرْبِ"(١).

وأوثر "**القطر**" على غيره كالمطر والغيث ونحوهما، لما فيه من معاني الضخامة وعظم الأثر، يقال: غيث قُطارٌ، أي: عظيم القطر(٢)، ولما في جرسه المشتمل على حرفي القاف والطاء، وهما من حروف التفخيم والقلقلة، والمختوم بحرف الراء، الذي من سماته التكرار، مما يعني أن الفتن التي ستقع خلال بيوت المخاطبين سيكون لها عظيم الأثر فيهم، نظرا لما تتسم به من الشدة والعظم وكثرة القلاقل والاضطرابات، وذلك أيضا داع للاستعداد ووازع إليه، يقول ابن حجر "وأخبر(ﷺ) في حديث أسامة بوقوع الفتن خلال البيوت ليتأهبوا لها، فلا يخوضون فيها، ويسألون الله الصبر والنجاة من شرها"(٣).

*****

- **وعن حُذَيْفَةَ بنِ الْيَمَانِ أن رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ وَهُوَ يَعُدُّ الْفِتَنَ «مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ لاَ يَكَدْنَ يَذَرْنَ شَيْئًا، وَمِنْهُنَّ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ، مِنْهَا صِغَارٌ وَمِنْهَا كِبَارٌ».(٤)**

وفيه أخبر النبي (ﷺ) بوجود أنواع كثيرة من الفتن، وذكر منها نوعين:

أولهما: ما عبر عنه بقوله "**مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ لاَ يَكَدْنَ يَذَرْنَ شَيْئًا**"، كناية عن هولهن وشمولهن جميع الناس، وعدم سلامة أحد منهن، مما يدعو الجميع إلى بالغ الاستعداد.

---

(١) لسان العرب – مادة وقع.

(٢) لسان العرب – مادة قطر.

(٣) لسان العرب – مادة وقع.

(٤) فتح الباري ١٣/١٣.

وجاء التعبير عن هذا النوع معتمدا على تنكير المسند إليه "**ثلاث**" للإلماح إلى عظمهن، وضيق العبارة عن الإخبار بحقيقتهن، وتنكير المفعول "**شيئا**" مع التعبير عن عامله بصيغة المضارع المنفي بـــ "**لا**" لما في ذلك من العموم والشمول، والمعنى: ثم ثلاث من الفتن تتسم بالشدة والقوة، لن يسلم منهن أحد ممن يعيش في زمانهن، ولن ينجي منهن إلا صالح الأعمال.

الآخر: ما عبر عنه الرسول (ﷺ) بقوله "**وَمِنْهُنَّ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ**"، وفيه شبه النبي (ﷺ) بعض الفتن التي تصيب المسلمين بعده (عليه السلام) برياح الصيف، تشبيها تمثيليا، تم فيه تشبيه هيئة الفتن وهي تنزل بالمسلمين في أوقات غير متوقعة، وبأنواع مختلفة بين القوة والشدة، فتحدث فيهم كثيرا من الاضطراب والقلق، وتترك فيهم آثارا غير محمودة بهيئة رياح الصيف التي تأتي على حين غفلة من الناس، حاملة في طياتها لفحات من الحر، تزيد من قيظ الناس، فلا هي تخفف عنهم، ولا هي تتركهم على حالهم، ووجه الشبه: هيئة حاصلة من أضرار تحدث وأحوال تتبدل بسبب مجيء شيء في غير وقته ومن غير توقع.
وعمد النبي (ﷺ) إلى تشبيه الفتن بالرياح، لعلم المخاطبين بها، ومعرفتهم لمختلف أنواعها، ومن ثم يزدادون بصرا بحقائق الفتن، ويزدادون كذلك حماسا وإثارة إلى إعداد العدة لها.

*****

- **وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ نبيُّ اللَّهِ (ﷺ) «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ ». قَالَ « يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ». قَالَ « فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ». قَالَ « فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ ». قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ**

(ﷺ) « فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا». قَالَ قَتَادَةُ وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُمْلأُ عَلَيْهِ خَضِرًا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١).

هذا الحديث يتحدث عن فتنة القبر، ويدعو إلى الاستعداد لها، وهو من الأحاديث التي وردت في صحيح البخاري، وروايته عنده كالتالي:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) قَالَ : إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولاَنِ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي الرَّجُلِ لِمُحَمَّدٍ (ﷺ) فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا قَالَ قَتَادَةُ وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ فِي قَبْرِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ فَيَقُولُ لاَ أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيُقَالُ لاَ دَرَيْتَ، وَلاَ تَلَيْتَ وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ"(٢).

وفيه يصور النبي (ﷺ) مشهدا يحدث للإنسان بعد دفنه ووضعه في القبر، مرتكزا في تصويره على المقابلة بين نوعين – حسب رواية البخاري(٣) – لا يخرج عنهما أي واحد من المخاطبين، وقد اتسمت هذه المقابلة بالخصائص البلاغية التالية:

أولا: التمهيد لها بما يثير إليها، ويدفع المخاطب إلى ترقبها، وذلك في قوله (ﷺ) قبلها "**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولاَنِ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي الرَّجُلِ لِمُحَمَّدٍ (ﷺ)**؟".

---

(١) صحيح مسلم / باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار– برقم ٧٣٩٥– ١٦١/٨.

(٢) صحيح البخاري / كتاب بدء الوحي– برقم ١٣٧٤– ١٢٣/١.

(٣) آثرت الاعتماد على رواية البخاري، لظني أنها أشمل وأوفى من رواية مسلم.

حيث عبر النبي (ﷺ) بعد تأكيد وضع الميت في قبره بـــ بجملة "**وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ**"، مصدّرة بالواو التي تفيد المصاحبة، للإلماح إلى سرعة التولي والانصراف بعد الدفن مباشرة، وكأنه من سرعة قيام الناس به قد حدث مصاحبا لعملية الوضع في القبر.

وأوثر التعبير عن المسند إليه بـــ "**أصحابه**" دون غيره كالأقران أو شبهه؛ لما يشعر به لفظ الأصحاب من القرب والمعايشة، يقول ابن فارس "الصاد والحاء والباء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مقارَنة شيءٍ ومقاربته"(١)، ولما في إيثاره من إشارة إلى حصول ذلك من غيرهم من باب أولى، وفي تقديم الجار والمجرور المشتمل على ضمير الميت مسبوقا بالحرف "**عنه**" على المسند إليه "**أصحابه**" ما يلقي مزيدا من ظلال الندم الذي يستشعره المدفون على ما كان نحو أصحابه خاصة، ونحو الناس عامة، من اهتمام ورعاية، قد تصل في بعض الأحيان إلى تفضيل حقوقهم على حقوق ربه ومولاه.

كما عبر النبي (ﷺ) قبل ذكر المقابلة بجملة "**وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ**" مؤثرا التعبير بـــ "**قَرْع**"، الدال بمعناه وجرسه على الضرب الشديد(٢)، لما يضفيه على المشهد من إبراز خوف المقبور من الوحدة والوحشة والظلمة التي يتركونه فيها.

كما أن إخبار النبي (ﷺ) بما يحدث من مجيء الملكين وسؤالهم المقبور عن محمد (ﷺ) يزيد من إثارة المخاطب وترقبه أحوال المقبورين في الإجابة عن هذا السؤال في ذلك الجو المرعب، نجانا الله تعالى منه.

---

(١) مقاييس اللغة – مادة صحب.

(٢) مقاييس اللغة – مادة ضرب.

ثانيا: أنها قابلت بين المؤمن من جهة والمنافق والكافر من جهة أخرى، مما يجعل شمول الطرفين لأنواع أخرى غير من ذكرتهم أمرا ممكنا، إذ من الممكن أن ينضم إلى المؤمن المسلم المطيع، وينضم إلى الطرف الآخر أو يحل محله المسلم العاصي، أو المسلم المفرط أو المقصر أو المقلد، وبذلك تشمل المقابلة كل الأصناف والأنواع[1].

ثالثا: أنها قرنت الطرف الأول (المؤمن) بما يشعر بنعيمه الحسي ونعيمه النفسي، فالأول يتمثل في قول قتادة "وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُمْلأُ عَلَيْهِ خَضِرًا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ"، والثاني يتمثل في قول الملكين له "انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ"، حيث كان للطباق بين "النار" و"الجنة" مع تقديم الأول أثره في إحداث هذا النوع من السرور، إذ البدء بذكر مقعده من النار ورؤيته له ثم تأخير ذكر مقعده من الجنة ورؤيته له كفيل بإدخال السرور على قلبه، ومضاعفة فرحه وسعادته بالنجاة من الأول والفوز بالثاني. "فعن أبي هريرة: لا يدخل أحد الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا"[2].

---

(١) ثمة خلاف بين العلماء حول سؤال الكافر في القبر عن رسول الله (ﷺ)، حيث يرى الجمهور أن سؤال الكافر عن النبي (ﷺ) وارد في أحاديث أخرى، بينما يرى بعضهم أن الكافر لا يسأل عن النبي (ﷺ) أصلا، وحجتهم في ذلك ما رواه عبد الرزاق من طريق عبيد بن عمير أحد كبار التابعين قال إنما يفتن رجلان مؤمن ومنافق، وأما الكافر فلا يسأل عن محمد ولا يعرفه، وأرى أن الرأي الأول أولى بالقبول لقوة حجته، وضعف حجة غيره، حيث ثبت أن الخبر الذي احتجوا به على عدم سؤال الكافر عن رسول الله (ﷺ) موقوف. يراجع فتح الباري ٢٣٧/٣ وما بعدها.

(٢) فتح الباري ٢٣٧/٣.

كما قرنت الطرف الثاني (المنافق والكافر) بما يشعر أيضا بعذابه الحسي وعذابه النفسي، فالأول يتمثل في جملة "وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ"، والثاني يتمثل في قول الملائكة "لاَ دَرَيْتَ، وَلاَ تَلَيْتَ"، ومعناها: الدعاء عليه بعدم الدراية والتلاوة أي الكلام والقراءة(١)، مما يجعلها أقرب إلى التوبيخ والتقريع على ترديده كلام الناس، وسيره خلفهم.

ولا يخفى أن اجتماع النعيم الحسي مع النعيم النفسي يبلغ بالجزاء أعلى درجاته، واجتماع العذاب الحسي مع العذاب النفسي يبلغ بالعقاب أعظم صوره.

كما لا يخفى أن عرض النوعين في هذا السياق التقابلي من شأنه أن يزيد من إثارة المخاطب، ويشحذ من عزيمته نحو إصلاح قلبه وتغذيته بالأعمال الصالحة، التي ينجيه الله تعالى بسببها من فتنة القبر بصفة خاصة، ويحفظه من الفتن كلها بصفة عامة.

(١) يراجع عمدة القاري شرح صحيح البخاري – بدر الدين العيني١٢/٤٦١.

المبحث الثاني

الخصائص البلاغية في التعريف بأسباب الفتن والتحذير من إثارتها أو المشاركة فيها

أولا: التعريف بالأسباب

- **عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ حَدَّثَنَا «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جِذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ»، ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ قَالَ «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَىْءٌ - ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ - فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّى الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ إِنَّ فِي بَنِى فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا. حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ»**(١).

في هذا الحديث يوضح النبي (ﷺ) مراحل زوال الأمانة من قلوب الناس، والتي يعد زوالها سببا رئيسا من أسباب حصول الفتن بينهم، وعاملا مهما من عوامل إثارتها.

وفي معنى الأمانة عدة أقوال: جمعها الإمام النووي في قوله "وأما الأمانة فالظاهر أن المراد بها التكليف الذي كلف الله تعالى به عباده، والعهد الذي أخذه عليهم، قال الإمام الواحدي في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) صحيح مسلم / باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب- برقم ٣٨٤ - ١/ ٨٨.

﴿وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب٧٢)، قال ابن عباس هي: الفرائض التي افترضها الله تعالى على العباد، وقال الحسن هو: الدين، والدين كله أمانة، وقال أبو العالية: الأمانة ما أمروا به، وما نهوا عنه، وقال مقاتل: الأمانة الطاعة، قال الواحدي: وهذا قول أكثر المفسرين، قال فالأمانة في قول جميعهم: الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب وبتضييعها العقاب، وقال صاحب التحرير الأمانة: عين الايمان"(١).

والقول بأن الأمانة هي: الدين أو عين الإيمان هو ما أراه جامعا لهذه الأقوال كلها، بجانب أنه يناسب القصد الذي يهدف إليه البيان النبوي الشريف.

وقبل بيان الكيفية التي تزول بها الأمانة من قلوب الرجال أخبر (ﷺ) بأنها كانت راسخة فيها، معبرا عن ذلك بقوله "**تَزَلَتْ فِي جِذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ**"، مستعملا كلمة "جذر" بما تدل عليه من "أصل كل شيء"(٢)، مع إضافتها إلى "قلوب" للإلماح إلى أنهم ولدوا بها، وفطروا عليها، وفي تخصيص "الرجال" بالذكر دون غيرهم، إشارة إلى أنها إذا ذهبت منهم وزالت عنهم فإنها ستزول عن غيرهم من باب أولى.

وفي مجيء "**الأمانة**" فاعلا للفعل "**نزلت**" استعارة مكنية، جرى فيها تحويل الأمانة من شيء معنوي إلى شيء محسوس، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه في قوله "**نزلت**"؛ إبرازا لأثر وجود تلك الأمانة، وأثر زوالها أو قبضها من القلوب في سلوك الإنسان وأفعاله، يؤيد ذلك ويقويه تقديمُ نزول الأمانة على نزول القرآن الكريم، ثم عطفُ علمِ ما في القرآن وعلمِ ما في السنة على النزول بالفاء التي تفيد التسبب؛ إذ فيه إلماح إلى أن الأمانة "إذا استمكنت

(١) المنهاج ١٦٨/٢.

(٢) مقاييس اللغة – مادة جذر.

من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف، واغتنم ما يرد عليه منها، وجدّ في إقامتها"[١]، والعكس.

ولإيضاح الكيفية التي يتم بها قبض الأمانة وإزالتها من قلوب الرجال ارتكز النبي (ﷺ) على التشبيه لما له من مزايا أشار إليها الخطيب القزويني في قوله "منها ما يحصل للنفس من الأنس بإخراجها من خفي إلى جلي، كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة إلى ما يعلم بالفطرة، أو بإخراجها مما لم تألفه إلى ما ألفته ... أو مما تعلمه إلى ما هي به أعلم، كالانتقال من المعقول إلى المحسوس ... ومنها الاستطراف ... ومن فضائله أنه يأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدة ... إلى غير ذلك"[٢]، فجاء بيانه (ﷺ) مشتملا على **ثلاثة تشبيهات**، يوضح كل واحد منها مرحلة من مراحل زوالها:

أولها: في قوله (ﷺ) "**فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ**"، ويمثل المرحلة الأولى من مراحل قبض الأمانة، وفيه شبه رسولنا الكريم (ﷺ) الأثر المترتب على زوال جزء من الأمانة من قلوب الرجال بالوكت، وهو: اعتراض لون مخالف لـــلّون الذى قبله [٣]، وفيه إشارة إلى قلة أثر ذلك القدر المنزوع من الأمانة على قلب الرجل في هذه المرحلة، وهو بذلك يلمح إلى بداية التغيير عن الفطرة، وأولية الانزياح عن الطبيعة.

ويلحظ أن النبي (ﷺ) عبر عن الجزء من الأمانة هنا بكلها في قوله "**فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ**" على سبيل المجاز المرسل، الدال على أن زوال الجزء مؤذن بزوال الكل ومنذر به، وهذا من شأنه التحذير والتنبيه لمن يرى في نفسه نوعا

---

(١) المنهاج ١٦٨/٢.

(٢) السابق ٩ وما بعدها.

(٣) المنهاج ١٦٨/٢.

من التفريط والعزوف عن القيام ببعض التكاليف إلى ضرورة الرجوع والارعواء، لئلا يقع فيما يقع فيه الناس مما سيوضحه باقي الحديث.

ثانيها: في قوله (ﷺ) "**فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ**"، ويمثل المرحلة الثانية من مراحل زوال الأمانة، وفيه شبه (ﷺ) الأثر المترتب على زوال جزء آخر من الأمانة من قلوب الرجال بالمجل، وهو: أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة، وظلمته فوق ظلمة الذي قبله(١)، ووجه الشبه هو عظم الأثر وبقاؤه، وفيه إشارة إلى أن تمادي الرجل في المخالفات وخيانة أمانة الدين وتكاليفه يترك في قلبه آثارا تعظم شيئا فشيئا، حتى يصل معها إلى مرحلة يصعب علاجها أو إزالة ما ترتب عليها في قلبه.

ثالثها: في قوله (ﷺ) "**كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَىْءٌ**"، ويمثل المرحلة النهائية من مراحل زوال الأمانة، وفيه شبه (ﷺ) زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه منه بعد استقراره فيه واعتقاب الظلمة إياه بجمر يدحرجه الإنسان على رجله حتى يؤثر فيها، ثم يزول الجمر ويبقى التنفط (٢) – وهو: أثر ذلك الجمر على رجل المرء – "منتبرا" أي مرتفعا بارزا، مما يشير إلى أن نتائج ذهاب الدين من قلوب الرجال ستبقى بارزة ظاهرة، وسيكون لذهابه آثار مُشينة للأفراد والمجتمع على السواء، وفي أخذ النبي (ﷺ) الحصا ودحرجته على رجله ضرب من الإيضاح والتأكيد لما ذكره.

ويلحظ إسناده (ﷺ) الفعل "**دحرج**" إلى ضمير المخاطب، مع إضافة الاسم المجرور "**رِجْل**" إلى ضميره في قوله "**رجلك**" لما يفيده ذلك من الإلماح إلى ما للمرء من دور كبير في نزع نور الأمانة من قلبه، وإزالة ما تبقى فيه من

---

(١) المنهاج.

(٢) نفسه.

حرص على القيام بالواجبات والتكاليف الشرعية، وأنه الفاعل الحقيقي لزوال ذلك النور كما أنه الفاعل الحقيقي للدحرجة.

والتشبيهات الواردة في الحديث الشريف تعد صورة تمثيلية لمراحل زوال الأمانة، بدأت بالأدنى وانتهت بالأعلى، والغرض منها "بيان حال المرء حين يلج باب الخيانة والتفريط فتزل قدمه، ولا ينتهي به الحال إلا في الدرك الأسفل من الفتنة والضلالة، وأن استصغار الإثم في هذا الباب مردٍ في المهالك، إذ يتدرج صاحبه من الوكت إلى المجل إلى الجمر، حتى لا يبقى في قلبه أثر للأمانة"(١)، وتلك حالة صالحة للفتن، مُهيّئة لنموها وحدوثها.

وقوله (ﷺ) في آخر الحديث "**فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّى الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ إِنَّ فِي بَنِى فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**" برهان يؤكد ما سبق بيانه وتصويره عن أثر زوال الأمانة من قلوب جميع الناس أو أكثرهم، لدرجة تجعل من يتصف بها من الندرة بمكان، ولربما ظن الناس الأمانة فيمن لا دين له، وذلك بسبب جهلهم بها وعدم إدراكهم حقيقتها.

والعبارة **كناية** لها معنيان، أحدهما قريب ظاهر وهو ما تدل عليه بألفاظها، والآخر بعيد مقصود وهو فساد الناس في آخر الزمان، وسهولة تفريطهم في تكاليف دينهم وشعائره، من غير أن يكون ذلك مصدر حزن أو سبب ضيق لهم، إذ يمارسون حياتهم بشكل طبعي، يبيعون ويشترون، بذمم خربة وقلوب ميْتة، وفي الوقت نفسه يتندرون بالقابضين على دينهم، ويتناقلون أخبارهم، من دون حرص على أن يكونوا مثلهم.

---

(١) أثر التشبيه في تصوير المعنى "قراءة في صحيح مسلم" د. عبدالباري طه سعيد ٢٧ – الطبعة الأولى.

وهي صورة تبعث الحزن في نفس المخاطب، وتلقي عليه بظلال من الخوف والقلق من أن يدركه ذلك الزمان الذي تنمو فيه الفتن وتترعرع، ولا يأمن على نفسه منها أحد، كما أنها في الوقت نفسه تثيره إلى الاهتمام بقلبه، الذي هو محل نزول الأمانة ومحل قبضها، والذي ورد ذكره في هذا الحديث أربع مرات، مُعبَّرا به في كل مرة عن الرجال على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، إلماحا إلى أن نزعها من القلوب يؤكد نزعها من الناس بالكلية.

وفي قوله (ﷺ) "**وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**"، يرسم النفي بالحرف "**ما**" المختوم بألف المد، مع تنكير كلمات "**حبة**" و "**خردل**" و "**إيمان**" وجر الثانية والثالثة بـــ "**من**" التبعيضية صورةً لذلك القلب، وقد خلا من الإيمان بالكلية، ومع ذلك يمدح الناس صاحبه ويطرونه، وهي صورة تثير العجب، وتدعو المخاطب في الوقت نفسه إلى الإشفاق والحذر والرجاء في النجاة – تفضلا من الله تعالى– إن أدركه ذلك الزمانُ.

وفي التعبير **استعارة مكنية**، شبه فيها الإيمان وهو أمر معنوي بشيء محسوس يوزن ويجزأ، بيانا لما يحدثه زوال الأمانة في قلوب الناس، وما يترتب عليها من ذهاب الإيمان بكل مكوناته وجزئياته، ولا يخفى ما فيها من دلالة على أن الإيمان يمكن أن يزيد وينقص، وأن حصول بعضه يؤذن باكتمال حصوله كله والعكس، كما لا يخفى ملاءمة هذا الوضع لنمو الفتن وانتشارها، مما يدفع المخاطب إلى اليقظة والتنبه لذلك، والعزم على الأخذ بالتوجيهات النبوية المُحذرة من الاشتراك في الفتن والداعية إلى عدم السعي فيها أو إثارتها.

*****

- **وعن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنُ الْعَاصِ عن رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) قال «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»**(١).

في هذا الحديث يبين الرسول (ﷺ) سببا مهما من أسباب حصول الفتن، ومجالا من المجالات التي تنمو فيها بكثرة، وهو انتشار الجهل وانعدام العلم، ولبيان ذلك جاء التعبير مشتملا على أساليب بلاغية، كان لها أثر كبير في إبراز هذا السبب.

- حيث طابق (ﷺ) بين فعلين، أحدهما منفي وهو "**لاَ يَقْبِضُ**"، والآخر مثبت وهو "**يَقْبِضُ**" فيما يعرف بطباق السلب.

وجاء هذا الطباق لبيان الطريقة التي يتم بها قبض العلم في آخر الزمان، وذلك إجابة عن سؤال مَنْ سأل عن كيفيته، يقول ابن حجر: "وقد حدّث رسول الله (ﷺ) بهذا الحديث إجابة عن سؤال مَن سأله عما رواه أبو أمامة، قال: لما كان في حجة الوداع قام رسول الله (ﷺ) على جمل آدم، فقال: "يا أيها الناس خذوا من العلم قبل أن يقبض، وقبل أن يرفع من الأرض"(٢).

حيث أبرز الطباق الكيفية التي يقبض الله تعالى بها العلم، بنفيه (ﷺ) أن يكون قبضه بانتزاعه من قلوب العلماء ومحوه من صدورهم، ثم بإثباته أن قبض العلم يكون عن طريق قبض العلماء مع ما ملأ الله تعالى به صدورهم

---

(١) صحيح مسلم / باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل- برقم ٦٩٧١- ٨/٦٠.

(٢) فتح الباري ١٣/٢٨٤، والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده باب حديث أبي أمامة الباهلي – برقم ٢٢٣٤٤ – ٥/٢٦٦ – مؤسسة قرطبة – القاهرة، والمعجم الكبير للطبراني – برقم ٧٧٧٥ – ٧/٢٤١ – بدون دار طباعة.

وعقولهم من علم وحكمة، ومن ثم تخلو الساحة من العلماء، ولا يبقى في الناس إلا الجهال.

ولا يخفى ما في جملة "**يقبض العلم**" من استعارة مكنية، شُبه فيها العلم الذي هو أمر معنوي بإنسان حي له روح، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الفعل "**يقبض**"، على سبيل الاستعارة المكنية، التي تبرز العلم كائنا حيا، يكثر نفعه ويفيض خيره على الناس أجمعين، ومن ثم يكون قبضه مؤذنا ببلاء شديد، وفتن عظيمة، شأنه شأن قبض الخيّرين من الناس.

– وفي الحديث أيضا طباق بين اسمين، أحدهما "**عَالِما**" والآخر "**جُهَّالاً**" في قوله (ﷺ) "حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"، وهو طباق يوضح انقلاب الأحوال، وتبدل الأوضاع عند الناس في آخر الزمان، لدرجة تجعلهم يولّون الجهلاء، ويسألونهم عن أمور دينهم ودنياهم، وهو وضع لا يترتب عليه إلا الضلال المحض لكل من السائل والمسؤول، وفيه تنمو الفتن وتكثر، ويأتيها الناس على أنها الصواب، ويفتي بها المفتون على أنها الحق.

ويلفت النظر التعبير بـــ "**جُهَّالاً**" مضعف العين مع وجود حرف المد في وسطه وفي آخره، وفيه إلماح إلى أن هؤلاء الرؤوس قد بلغوا في الجهل مداه، ومع ذلك يسألهم الناس ويأخذون بفتاويهم، وهو أمر يثير التعجب من السائل والمسؤول على حد سواء.

– وفي قوله "**فضلوا وأضلوا**" المكون من فعلين مختومين بواو الجمع تصريح بأن رفع العلم لا يترتب عليه إلا الضلال العميق والتخبط الشديد، وإلماح إلى أن وجوده وبقاءه يجعله مصدرا للهداية والتوفيق، ومن ثم يكون أثره في التعريف بالفتن، والعمل على وأدها كبيرا عظيما، والعكس، يقوي هذا

المعنى مجيء الفعلين معطوفين على ما قبلهما بفاء التسبب، الدالة على أن النتيجة الحتمية لذلك هي ضلال كل من السائل والمسؤول.

والحديث على وجازته يرسم لنا صورة لمجتمع سيطر فيه الجهال على مقاليد الأمور، وأمسكوا فيه بزمام كل شيء، وليتهم عرفوا جهلهم فامتنعوا عن الفتوى والتوجيه والأمر، إذ لو حدث ذلك لما ضل الناس، لكنهم أصروا على الفتوى والتوجيه بغير علم، فصار الضلال سمة المجتمع كله، وهو وضع لا يأتي بخير، ولا يسود فيه إلا الشر، كما أنه مجال فسيح لنمو الفتن بجميع أنواعها.

*****

- **وفيما يرويه جَابِرُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ (ﷺ) يَقُولُ «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»**[1].

في هذا البيان ذكر الرسول (ﷺ) سببا عظيما من أسباب الفتنة، يتولاه الشيطان بنفسه، أو يأمر به أتباعه، وهو التحريش بين المسلمين عامة، وفي جزيرة العرب بصفة خاصة، لأنها مهبط الوحي، ومأوى أفئدة المسلمين من جميع أنحاء العالم، وإليها يأرز الإيمان والمؤمنون في آخر الزمان، كما سيأتي بيانه في المبحث الثالث.

والتحريش معناه: الإفساد والإغراء، يقال "حَرَّش بينهم: أَفْسد وأَغْرى بعضَهم ببَعض. قال الجوهري: التحريش الإِغراء بين القوم وكذلك بين الكلاب،

(١) صحيح مسلم / باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه – برقم ٧٢٨١– ١٣٨/٨.

وفي الحديث: أَنه نهى عن التحْريش بين البهائم، وهو الإغراء وتهييج بعضها على بعض، كما يُفْعل بين الجمال والكِباش والدُّيُوك وغيرها"(١).

وقد مهد النبي (ﷺ) للسبب الذي أراد لفت الأنظار إليه **بتأكيد** يأس الشيطان من أن يعبده الناس في جزيرة العرب، سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أم غير مباشرة، مستعملا لذلك "**إن**" و "**قد**" والفعل الماضي "**أيس**"، ومعبرا عن أعمال الكفر التي كان العرب يقومون بها بـــ "عبادة الشيطان" **مجازا مرسلا** لعلاقة السببية، إذ هو الآمر بها المزيّن لها.

وعبر عن "المؤمنين بـــ "**المصلون**"...لأن الصلاة هي الفارقة بين الإيمان والكفر، وأظهر الأفعال الدالة على الإيمان، فالمراد أن الشيطان أيس أن يعود أحد من المؤمنين إلى عبادة الأصنام، ويرتد إلى شركه في جزيرة العرب ... أو لأن المراد بيان أن المصلين لا يجمعون بين الصلاة وعبادة الشيطان"(٢)، وفي ذكر "الشيطان" نوع من إثارة المخاطبين إلى الحذر والعصيان، إذ لا يغيب عن أذهانهم ما حكاه القرآن عن قسمه بعزة الله تعالى على عزمه إغواء جميع بني آدم في قوله (ﷻ): ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾(سورة ص٨٢).
ويمكن أن يكون التعبير **كناية** عن "بلوغ أمر المسلمين ودولتهم حداً أيس الشيطان أن يقع الارتداد بعده، وليس غرضه (عليه السلام) الإخبار من عدم وقوع الارتداد البتة"(٣).

---

(١) لسان العرب – مادة حرش.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير– للمناوي ٤٥١/٢– الطبعة الأولى – ١٤١٥هـ/١٩٩٤م– دار الكتب العلمية.

(٣) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح – أبو الحسن عبيد الله بن محمد المباركفوري ١٥١/١ – الطبعة الثالثة–١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م – إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند.

والمعنى المختار عندي: "أن الشيطان أيس من أن يُستبدل دين الإسلام، وينهدم أساسه، ويظهر الإشراك ويستمر، ويسير الأمر كما كان من قبل، ولا ينافيه ارتداد من ارتد، بل لو عبد الأصنام أيضاً لم يضر في المقصود"(١).

وفي التعبير بـــ "**لكن**" الذي يفيد الاستدراك(٢)، نوع من تنبيه المخاطبين إلى أن ثمة معنى يريد الرسول (ﷺ) أن يدفع به إليهم، نظرا لأهميته وعدم معرفتهم به أو بُعده عن تصوراتهم.

وقد عبر الرسول (ﷺ) عن هذا المعنى بقوله "**فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**"، وهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: عملُه أو شغلُه في التحريش بينهم(٣)، أو: لكن الشيطانُ غير آيس من إغراء المؤمنين الساكنين فيها وحملهم على الفتن، بل له مطمع في ذلك(٤)، حيث حُذف المبتدأ لمعرفته والعلم به، ولأن الاهتمام منصب على الخبر وموجه إليه بالدرجة الأولى، ولا يخفى ما فيه من حرص النبي (ﷺ) على الإعلام؛ تحذيرا من الغفلة عن هذا السبب المهم من أسباب الفتن، وتنبيها إلى ضرورة اليقظة والحذر مما يسوله الشيطان للمسلمين تجاه بعضهم، والنصح بعدم طاعته في ذلك.

وكأني باختيار كلمة "**التحريش**" التي يتوسطها حرف المد، والمختومة بحرف الشين، الذي يعد التفشي من أبرز سماته(٥)، أسمع وشوشة الشيطان، ووسوسته في آذان المسلمين، وأتصوره وهو ينتقل – بصبر وجلد وطول نفس–

---

(١) السابق.

(٢) الجني الداني ١٠٥/١.

(٣) إعراب ما أشكل من ألفاظ الحديث النبوي – للعكبري ١٦/١.

(٤) فيض القدير ٤٥١/٢.

(٥) غاية المريد في علم التجويد – عطية قابل صقر ١٤٧ – الطبعة السابعة – القاهرة.

من فرد إلى فرد، ومن قوم إلى قوم، ومن فريق إلى فريق؛ ليوقع بينهم، ويغير صدورهم، ولن يهدأ حتى يقع القتال بينهم، ويفني بعضهم بعضا، أو يُفرّق جمعُهم بحدٍ أدنى، وهذا ما أرد الرسول(ﷺ) أن يلفت الأنظار نحوه، تنبيها إليه، وتحذيرا منه.

*****

- **وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) «مَنَعَتِ الْعِرَاقُ دِرْهَمَهَا وَقَفِيزَهَا وَمَنَعَتِ الشَّأْمُ مُدْيَهَا وَدِينَارَهَا وَمَنَعَتْ مِصْرُ إِرْدَبَّهَا وَدِينَارَهَا وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ» شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ لَحْمُ أَبِى هُرَيْرَةَ وَدَمُهُ**[1].

هذا الحديث من أعلام نبوته (ﷺ) ، حيث جاءت أفعاله كلها (**منعت – عدتم – بدأتم**) بلفظ الماضي، مع أنه يخبر عن شيء يحدث في المستقبل، لما في ذلك من التنبيه إلى تحقق وقوع ما يخبر به من غير أدنى شك[2].

وفيه يوضح الرسول (ﷺ) بعض الأمور التي يترتب عليها وقوع الفتن بين المسلمين، تحذيرا لهم من الانخداع بها، والولوج إلى الفتنة بسببها، ولبيان ذلك جاء التعبير مشتملا على فنون بلاغية، كان لها أثر كبير في إبراز هذا السبب.

ففيه طابق (ﷺ) بين فعلين، أحدهما "**عُدْتُم**"، والآخر "**بَدَأْتُم**"، مع تكرار الجملة التي وردا فيها ثلاث مرات، لما يحمله التكرار من الدلالة على تأكيد المعني، نظرا لغرابته، أو للرغبة في تنبيه المخاطب إليه.

---

(١) صحيح مسلم / باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات – برقم ٧٤٥٩ – ١٧٥/٨.

(٢) الإيضاح لتلخيص المفتاح للخطيب القزويني بتعليق الشيخ عبدالمتعال الصعيدي ٢/ ١٢٢– طبعة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م– مكتبة الآداب– مصر.

وفي معناه تأويلان، **أحدهما:** أن الناس سيعودون في آخر الزمان إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام من "فساد الأمر، وافتراق الكلمة، وغلبة الأهواء، وذهاب الدين"(١)، فيكون بمعنى حديث " بَدَأَ الْإِسْلَام غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ" الذي سيأتي بيانه.

الآخر: أن معناه أن العجم والروم يستولون على تلك البلاد في آخر الزمان، فيمنعون حصول ذلك للمسلمين(٢).

وأرى أنه لا مانع من دلالة الطباق على حصول الأمرين معا في آخر الزمان، حيث إن ذهاب الدين، وافتراق الكلمة، وغلبة الأهواء، كل ذلك من الأسباب الرئيسة في اجتراء غير المسلمين عليهم، وخلع اليد من طاعتهم، مما يذكر بقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (محمد٧)، كما أنه من الأسباب الرئيسة في ظهور الفتن بجميع أنواعها بين المسلمين، مما يؤدي إلى انشغالهم بها عن حماية أراضيهم وإصلاحها ورعايتها.

وقبل الطباق عبر النبي (ﷺ) عن الخراب بالمنع، مجازا مرسلا علاقته المسببية، إذ المنع مسبب عن الخراب وناتج عنه، ومزية التعبير به أنه يجمع بين السبب والمسبب، وهو ما لا يتحقق إذا جاء التعبير بالخراب، إذ من الممكن أن تخرب البلاد ويهجرها أهلها، لكنها غنية بالخيرات والثروات، أما ما جاء عليه التعبير المجازي فإنه يدل دلالة واضحة على الحرمان من الخيرات، ونفاد الثروات – التي كانت تزخر بها هذه البلاد – في آخر الزمان، ولا شك أن ذلك

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم أبو العبَّاس أحمَدُ الأنصاريُّ القرطبيُّ ٧٥/٢٣.
(٢) المنهاج ٢٠/١٨.

يكون سببا في حصول كثير من الفتن، وهو ما يحذر منه المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه.

وذلك من شأنه أن يزيد المعاني التي قال بها العلماء في إيضاح قوله (ﷺ) "**عُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ**" **معنى ثالثا**، وهو أن بلاد المسلمين ستعود إلى ما كانت عليه في سابق عهدها من فقر وانعدام الثروات وشحها؛ مما يدفع أهلها إلى البحث عنها والاقتتال على ما يظهر منها، كما كان يحصل منهم في قديم زمانهم.

ويلفت النظر بدء الرسول (ﷺ) بالعراق، وتثنيته بالشام، ثم حديثه عن مصر، ولعل في ذلك إشارة منه (ﷺ) إلى أن الخراب أو الفتن ستلحق هذه البلاد على الترتيب الوارد عليه البيان، وهو ما يصدقه الواقع، ويشهد به.

*****

ثانيا: التحذير من إثارة الفتن أو السعي إليها

- **عَنْ أبي هريرة أنّ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِى يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلاَ يَفِي لِذِى عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَلَسْتُ مِنْهُ»**[1].

(١) صحيح مسلم / باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن – برقم ٤٨٩٢ – ١/ ٩٠.

هذا الحديث اعتمد في تحقيق المقصود منه على التقسيم والشرط، فقد ذكر فيه النبي (ﷺ) ثلاثة أصناف من مثيري الفتنة، المتقاتلين على الإمارة، المتنازعين عليها[1]، ولبيانه (ﷺ) عن هذه الأقسام من الخصائص ما يلي:

أولا: أنه لم يستوف جميع أقسام الناس في زمان الفتنة، ولعل السر في اقتصاره على هؤلاء الثلاثة كونهم أشد جرما، وأفظع عملا، وأشد تأثيرا، ويمكن أن يكونوا أكثر وجودا.

ثانيا: أنه قرن كل قسم بما يناسبه من عقوبة؛ جرّاء جُرمه، وجزاء ما يحدثه في الأمة الإسلامية من أضرار، تبصيرا للمسلمين وترهيبا.

- فالذي يخرج من طاعة ولي الأمر المُجمَع عليه من الناس، ويفارق الجماعة في أي أمر من الأمور قاصدا شق الصف، ثم مات على ذلك مات ميتة جاهلية، ويُعنى بها: "أنهم كانوا لا يبايعون إمامًا، ولا يدخلون تحت طاعته، فمن كان من المسلمين لم يدخل تحت طاعة إمام فقد شابههم في ذلك، فإن مات على تلك الحالة مات على مثل حالتهم، مرتكبًا كبيرةً من الكبائر، ويُخاف عليه بسببها ألاَّ يموت على الإسلام"[2].
- والذي يموت متعصبا بأي صورة من الصور فليس ثمة ما يجعله مختلفا عن أهل الجاهلية، الذين كان التعصب الأعمى ديدنهم، وكأنه لم يستفد من الإسلام بشيء.

---

(١) نحتاج دراسة تقوم لمعرفة الخصائص البلاغية في بيان المصطفى (ﷺ) عن هذا الموضوع، لما له من خطر شديد على الأمة الإسلامية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، والله الموفق والمعين.

(٢) المفهم ١٢/١٠٥.

ويلحظ في بيانه (ﷺ) عن هذا القسم تعبيره بكلمة "**عُمِّيَّة**"، الدالة على العمى، وبيانه لها بجملة "**يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ...**" وفي ذلك دلالة على أن الغضب والتعصب يصيبان الإنسان بالعمى، فلا يستطيع أن يستبين وجهته، وفيه نوع من التفسير النفسي لما يصيب المتعصب والغاضب، تحذيرا من التفرق وترهيبا.

ويلحظ كذلك استيفاؤه جميع أقسام التعصب وأشكاله، وترتيبها ترتيبا تصاعديا، مع توحيد جزائها في قوله "**يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**"، للدلالة على أن عقاب التعصب بجميع درجاته واحد، وأن كل أشكاله سواء، ولا يخفى ما لتنكير كلمة "**عصبة**" من دلالة على التحقير وعدم الاعتراف بهذا النوع من الأفعال التي تقسم الأمة، وتفرق جمعها.

● والذي يُعمل سيفه في أبناء الأمة الإسلامية، ولا يقوم بالواجبات التي بايعوه من أجلها، وأعطاهم عهده أن يفعلها، فجزاؤه – كما بين الرسول (ﷺ) "**فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ**"، ومعناه: "أنه ليس بِمُسلم، وهذا صحيحٌ إن كان معتقدًا حِلِّيَّة ذلك، وإن كان معتقدًا تحريمه فهو عاصٍ من العصاة، مرتكب كبيرة، فأمره إلى الله تعالى، ويكون معنى التَّبَرِّي على هذا، أي: ليست له ذمّة ولا حرمة، بل إن ظُفِر به قُتِل، أو عُوقب، بحسب حاله وجريمته، ويحتمل أن يكون معناه: ليس على طريقتي، ولست أرضى طريقته"(١).

ويلفت النظر في بيانه (ﷺ) عن هذا القسم تعبيره عن المسلمين بكلمة "**أمتي**" وهي كلمة تحمل في طياتها معاني عظيمة من الحب الجارف، والرحمة البالغة، والأبوة الحانية، والشرف الرفيع، وفي الوقت نفسه التحذير الشديد من

(١) المفهم ١٢/١٠٥.

استباحة دمائهم من أي أحد كائنا من كان، صلوات الله عليك يا سيدي يا رسول الله.

كما يُلحظ جمعه (ﷺ) بين البَر والفاجر بالواو التي تفيد مشاركة المعطوف للمعطوف عليه في المعنى والحكم(١)، مع إضافته إلى ضمير الأمة المضافة إلى ضمير الرسول المكرم (ﷺ)، وفيه إلماح إلى أن إسالة دماء المسلمين أيا كانت درجة تمسكهم بدينهم من غير مسوغ شرعي كبيرةٌ لا يرضاها رسول الله (ﷺ)، وقد تُخرج من يفعلها عن الإسلام، وفيه أيضا "دليلٌ على أن ارتكاب المعاصي، والفجور، لا يُخرِج عن الأمّة"(٢).

ولا يخفى ما تبديه الإضافة المذكورة من حب النبي (ﷺ) لجميع أفراد أمته، وحرصه على حقن دمائهم، وغضبه الشديد ممن يستبيحها من غير مسوغ، مما يذكر بحديثه (ﷺ) «**لاَ يَحِلُّ دَمُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ الثَّيِّبُ الزَّانِي وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»(٣).

وقوله (ﷺ) "**وَلاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا**" يدل على أن هذا النوع قد بلغ في الإجرام درجة جعلته لا يكترث بأحد من أبناء أمة النبي (ﷺ)، ولا يخاف الله تعالى فيهم، ولا يخشى وبالا ولا عقوبة على أفعاله بهم، وذِكر المؤمن مع دخوله في صنف الأبرار المذكور في الجملة السابقة من باب ذكر الخاص بعد العام، الدال هنا على فجور هذا الصنف من الحكام.

---

(١) يراجع الجنى الداني ٢٥.

(٢) المفهم ١٠٥/١٢.

(٣) رواه أبو داوود في سننه برقم ٤٣٥٤، والترمذي في سننه برقم ١٤٠٢، والحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم ٨٠٤١.

وفي تنكير لفظ "**عَهْد**" إلماح إلى ما يجب أن يكون عليه أولو الأمر من احترام العهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم، سواء أكانت مع أبناء أمتهم، أم مع غيرهم في الداخل والخارج، لأن عدم الوفاء بالعهود من عوامل إثارة الفتن وإيقاظها، ومن ثم فلا ينبغي أن يستهين به أحد، أو يقدم عليه، يقوي ذلك مجيء هذه الجملة معطوفة على ما قبلها بالواو التي تفيد الاشتراك في الحكم، مما يعني أن عدم الوفاء بالعهود يماثل استباحة دماء المسلمين، وعدم التحاشي من المؤمنين في الجرم والعقوبة.

ثالثا: يلحظ في بيان النبي (ﷺ) عن هذه الأقسام كثرة التعبير بالمضارع (يغضب- يدعو- ينصر- يضرب- لا يتحاش- لا يفي)، لما للتعبير به من خاصية استحضار الحالة كأنها ماثلة مشاهدة، بجانب ما يدل عليه من استمرار تجددي، يشير إلى أن هذه الأفعال صارت ديدنا، ومنهجا لمن يقوم بها، وأن تخليه عنها أمر بلغ في الصعوبة غايتها، ولا يخفى ما في ذلك من التحذير من هذه الأفعال كلها.

رابعا: كما يلحظ كذلك نوع من التناغم بين الألفاظ والمعاني الدالة عليها، حيث يبرز ذلك بوضوح في تعبيره (ﷺ) بالفعل "**فارق**" الدال بجرسه وزمانه على اتساع الهوة وبعد المسافة بينه وبين الجماعة، وكذلك التعبير بالفعل "**قاتل**" المشير إلى إيغاله في القتل، وكذلك الفعل "**يدعو**" الرامز بحرف الواو في آخره إلى عمق التعصب في داخله، كما أن التعبير بكلمات "**برها- فاجرها- لا - يتحاشى- يفي**" والتي تتشابه في انتهائها بحرف مد يُلمح إلى ما وصل إليه من يفعل ذلك في أمة رسول الله (ﷺ) من تطاول واجتراء واستكبار، يجعله حقيقا ببراءة الرسول (ﷺ) منه ومن أمثاله. ألا قبّح الله هذه الأقسام، وعافانا من الوقوع فيما نهى عنه النبي المكرم (ﷺ).

خامسا: أن الرسول (ﷺ) خاطب في القسمين الأول والثاني الرعية، وخاطب في القسم الأخير الحكام أو الرعاة، وبذلك يكون المعصوم (ﷺ) قد وجه تحذيراته من إثارة الفتن لكل من الراعي والرعية، حتى لا يستغل أي فريق منهما كلامه لصالحة.

وفي هذا الحديث استعمل الرسول (ﷺ) أيضا أسلوب الشرط الذي يزيد المعنى بيانا وإيضاحا، ويزيد من تطلع المخاطب وإثارته إلى معرفة ما يترتب على كل فعل من الأفعال المذكورة، فإذا ورد ما يتطلع إليه ثبت في ذهنه وتأكد، وذلك لاعتماده على جملتين تسمى الأولى جملة الشرط، والثانية جملة الجواب أو الجزاء.

هذا بجانب ما تحمله الجمل الشرطية هنا من ترهيب وترغيب معا، فهي ترهب من إثارة هذه الأنواع من الفتن، وترغب في أن يكون المسلم على العكس من ذلك.

فالجملة الأولى ترهب من عدم طاعة أولي الأمر، ومن الخروج على الجماعة[1]، وترغب في ضده، والثانية ترهب من التفرق والتحزب أو التعصب، وترغب في الوحدة والتعاون، والثالثة ترهب من سفك الدماء من غير بينة أو احتراز، ومن عدم وفاء أولي الأمر بما تعهدوا به للناس، وتدعو كذلك إلى ضده، ومجيء الأسلوب مشتملا على الترهيب والترغيب أكثر تأثيرا، وأشد وقعا في النفوس منه إذا جاء خاليا من الأمرين معا، أو مشتملا على واحد

(١) الترهيب من عدم الطاعة والخروج على الجماعة ورد في حديث آخر من أحاديث الفتن، رواه مسلم برقم (٤٨٩٦) عن ابْنِ عَبَّاسٍ يَرْوِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ».

منهما، لما تمتاز به هذه الطريقة من الجمع بين الفعل وجزائه، وبذلك يكون البيان كافيا شافيا، مبصّرا وناصحا.

*****

- **و قريب منه ما ورد عن عَبْد اللَّهِ بْن عُمَرَ قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ حُجَّةَ لَهُ وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»**[1].

وفيه تآزر المجاز المرسل والكناية مع الشرط والتقسيم في التحذير من عدم طاعة أولي الأمر، ومن الموت على غير بيعة، لأن ذلك من أسباب الاجتراء على إثارة الفتن، ودعوة الناس إلى المشاركة فيها.

حيث يأتي المجاز المرسل فيه في موضعين:

أولهما: في قوله (ﷺ) "**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ**"، فقد عبر عن الإنسان باليد، ومن المعروف أن الخروج على الإمام وعصيانه لا يكون باليد فقط، وإنما يكون بالبدن كله، إذ يشارك فيه أجزاء أخرى كاللسان والأرجل والعينين وغيرها، وخصت اليد بالذكر دون باقي الأعضاء، لأن المبايعة لا تكون إلا بها، ومن ثم عُدّ التراجعُ عن البيعة بعد حصولها نزعا لليد.

ومزية المجاز هنا أنه يضع المتلقي أمام صورتين متناقضتين، إحداهما للرجل وهو يبايع الإمام بيده، والأخرى له وهو يتراجع عن هذه البيعة، إذ يوحي اللفظ بأن الإمام كان ممسكا بيده، وإذا به يخلعها بقوة منه، رافضا تلك البيعة، معلنا الخروج عليه، داعيا الناس إلى ذلك، وهو ما لا يتحقق إذا جاء التعبير على غير صورته المجازية، التي تحدث نوعا من التنفير من هذا الفعل،

(١) صحيح مسلم / باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن – برقم ٤٨٩٩ – ٢٢/٦.

الذي يتنافى مع أخلاق الإسلام وآدابه من جهة، ويدعو إلى شق الصف، وزعزعة الاستقرار من جهة أخرى.

ثانيهما: في قوله (ﷺ) "**ومَنْ مَاتَ ولَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ**"، حيث عبر عن المسلم أيضا بالـ"**عُنُق**" مجازا مرسلا، علاقته الجزئية، إذ البيعة لا تكون بالعنق وحده، ولكنها تكون بالبدن كله.

وأوثر العنق بالذكر دون غيره، لأنه رمز الانقياد، والاتباع، وعدم النفور أو الشرود عما يوحد الكلمة ويجمع الشمل، ومن حركاته يمكن كشف حقيقة موقف الشخص من إمامه، مبايعة أو رفضا، وهو ما عبر به الذكر الحكيم في مواضع كثيرة، منها: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (الرعد ٥)، فـ "جعل الأغلال في الأعناق شعار على أنهم يساقون إلى ما يحاولون الفرار والانفلات منه"(١).

أما **الكناية** فهي في الفعل "**مات**" من قوله (ﷺ) "**ومَنْ مَاتَ ولَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ**"، ومعناه القريب هو: الموت الحقيقي، أما المعنى البعيد الذي يرمي إليه الرسول (ﷺ) فهو: التأخر عن بيعة الإمام الذي أجمع عليه الناس فترة من الزمن طالت أم قصرت، لأنه ينبئ عن عدم الاعتراف بالحاكم، وفيه دعوة للغير كي يخرج عليه، ولا يخفى ما فيه من زعزعة الاستقرار، وإحداث الفوضى التي تجر إلى الفتن على اختلاف أنواعها.

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٢/٧١ – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م- مؤسسة التاريخ العربي- بيروت.

وأوثر التعبير بالموت تذكيرا به، وتخويفا من حصوله على تلك الحالة، فيختم له بها ولو كان يعيش على غيرها غالبية عمره، إذ الأعمال عند الله تعالى إنما تكون بالخواتيم، وهذا ما لا يتحقق إذا جاء التعبير على غير هذه الطريقة.

أما الشرط فقد سبق بيان أثره البلاغي في مثل هذا المقام، إلا أن ما يلفت النظر هنا قوله (ﷺ) في جملة الجزاء الأولى "**لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ حُجَّةَ لَهُ**"، حيث تدل على أن كل الحجج والأسباب التي يتعلل بها من يخلعون أيديهم من طاعة أولي الأمر المُجمَع عليهم، ويثيرون هذا النوع من الفتن غير مقبولة عند الله تعالى، حتى ولو كانوا محقين فيها، وفيها من التحذير والترهيب ما لا يخفى.

*****

- **وعن أَبي هُرَيْرَةَ أن رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) قال: «سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ وَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً فَلْيَعُذْ بِهِ»**[1].

وفيه تآزر الطباق والأمر مع التقسيم في تحقيق المقصود منه، فقد طابق الرسول (ﷺ) بين "**القاعد**" و"**القائم**"، وبين "**القائم**" و"**الماشي**" باعتبار الأول ساكنا والثاني متحركا، وبين "**الماشي**" و"**الساعي**" باعتبار الأول بطيئا والثاني سريعا، وكلها أسماء كما هو واضح.

كما طابق رسول الله (ﷺ) بين الفعل "**تَشَرَّفَ**" والاسم "**ملجأ**"، باعتبار الأول يدل على السعي إلى الفتن والمشاركة فيها [2]، والثاني يدل على الإحجام

(١) صحيح مسلم / باب نزول الفتن كمواقع القطر– برقم ٧٤٢٩– ١٦٨/٨.

(٢) يراجع لسان العرب – مادة شرف، فتح الباري ٣١/١٣.

عنها، وعدم السعي إليها[1].

وكلها مطابقات تقصد إلى التحذير من مباشرة الفتن، أو المشاركة فيها بأي صورة من الصور، يقول ابن حجر "الظاهر أن المراد مَنْ يكون مباشرا لها في الأحوال كلها، يعني أن بعضهم في ذلك أشد من بعض، فأعلاهم في ذلك الساعي فيها، بحيث يكون سببا لإثارتها، ثم من يكون قائما بأسبابها وهو الماشي، ثم من يكون مباشرا لها وهو القائم، ثم من يكون مع النظارة ولا يقاتل وهو القاعد، ثم من يكون مجتنبا لها ولا يباشر ولا ينظر وهو المضطجع اليقظان، ثم من لا يقع منه شيء من ذلك ولكنه راض وهو النائم، والمراد بالأفضلية في هذه الخيرية من يكون أقل شرا ممن فوقه على التفصيل المذكور"[2].

بل إن الطباق بين "**تَشَرَّفَ**" و"**ملجأ**" فيه نوع من التصريح بما يجب أن يكون عليه المسلم عند حصول الفتن، لما فيه من دعوة إلى البعد عنها، حتى لو وصل الأمر إلى اعتزال الناس وعدم الاختلاط بهم، والاعتكاف في مكان بعيد عنهم، وذلك عن طريق المقارنة بين إنسان تعرض للفتن وشارك فيها فأهلكته، وآخر اعتزلها، وبحث عن مكان لا يصل إليه فيه أحد من الناس، ملتمسا لنفسه بذلك النجاة من الهلكة، وجيء بالطباق المبين هذا المعنى متأخرا بعد أن ألمح إليه فيما سبق من مطابقات؛ ليكون في التصريح بعد التلميح ضرب من تقرير

---

(١) هذا النوع مما يلحق بالطباق، لأن اللفظين المذكورين غير متضادين، ولكن يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر بسببه أو لزومه أو نحوهما. ينظر بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي ٤/١٠.

(٢) فتح الباري ١٣/٣١.

المعنى وتوكيده وتثبيته في نفس المتلقي، بوروده مرتين، إحداهما على سبيل التلميح، والأخرى على سبيل التصريح.

وأوثر التعبير بالفعل "**تَشَرَّفَ**" لما فيه من تضعيف الراء مع ما لها من خاصية التكرار، وفي ذلك إلماح إلى ما في استطلاعه الفتن أو مشاركته فيها من تدرج ومبالغة وإكثار، وكلا الأمرين – أقصد الاستطلاع أو المشاركة – يدلان على رضا وعدم إنكار، يستوجب العقاب الذي ذكره رسول الله (ﷺ) في قوله "**تستشرفه**" الدال – من خلال اتفاقه مع فعل الشرط في الاشتقاق فيما يعرف بالمشاكلة – على أن الجزاء من جنس العمل، ولا يخفى ما فيه من الإبلاغ في التحذير من الفعل بأي صورة من الصور، لأنه على قدر الاستشراف يكون العقاب، ومن ثم لن يُعفى من العقاب من تشرّف لها بأي قدر أو بأي جزء.

وكان للأمر النبوي "**فَلْيَعُذْ بِهِ**" أثره – بجانب المطابقة – في بيان ما يجب على المسلم أن يفعله في زمان الفتن، حيث جاء أمره (ﷺ) بصيغة المضارع المقترن باللام، وهي صيغة أكثر مبالغة في الأمر من غيرها، كما جاء مقرونا بالفاء التي تفيد التعقيب؛ للإشارة إلى ضرورة الإسراع باعتزال الفتنة، والاختباء منها لما في ذلك من وعد بالسلامة والحفظ مما ينتج عن الفتن من هلاك، وما يحدث فيها من مصائب.

وفيه ذكر النبي (ﷺ) صور السعي إلى الفتن وأقسام الناس في ذلك، ومن خصائص تعبيره عن هذه الأقسام ما يلي:

أولا– أنه استوفى في التقسيم الأول جميع الأقسام المُشارِكة في الفتن، فليس ثمة قسم لم يذكره الرسول (ﷺ) سوى النائم، ولعل السر في ذلك أن غلبة النوم عليه يفقده الإرادة التي هي مرتكز هذا التقسيم، فكأنه لا وجود له، ومن ثم فإن ما ذُكر يعد من صحة التقسيم وتمامه.

ثانيا: أنه ذكر الأقسام مرتبة ترتيبا تصاعديا تبدأ بمن هو أقل شرا، وأصغر أثرا في الفتنة، وهو القاعد، وتنتهي بأعظمهم خطرا، وأشدهم ضررا، وهو الساعي.

ثالثا: أنه أتبع ذلك التقسيم بتقسيم آخر يوضح أن الناس بصفة عامة حيال الفتن قسمان، لا ثالث لهما:

أولهما: من تشرف أي: تطلع إليها بأي شكل من الأشكال السابق ذكرها في التقسيم الأول.

والآخر: الراغب عنها، الباحث عن النجاة فيها.

وقرَنَ كل واحد منهما بما يُرغب فيه أو ينفر منه، كقوله "**تَسْتَشْرِفهُ**" مع القسم الأول، وقوله "**فَلْيَعُذْ بِهِ**" مع القسم الثاني، ليكون في عرض جميع الأقسام على هذا النحو ضرب من الإحاطة بالأمر من جميع جوانبه، فلا يبقى أمام العقل إلا التفكير والمقارنة(١)، ثم اختيار الأصوب الذي هو الحذر من إثارة الفتن بأية صورة من الصور، واعتزالها والفرار منها إن وقعت.

*****

- **وعَنْ أبي بكْرَةَ (ﷺ) قالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) يَقُولُ «إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قَالَ فَقُلْتُ أَوْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ «إِنَّهُ قَدْ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»**. وفي رواية البخاري "إنه كان حريصا على قتل صاحبه"(٢).

---

(١) يراجع دراسات منهجية في علم البديع د. الشحات محمد أبوستيت ٢٤٥ (بتصرف) – الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م– دار خفاجي للطباعة والنشر – القليوبية – مصر.

(٢) صحيح مسلم / باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما– برقم ٧٤٣٤– ١٦٩/٨، صحيح البخاري / كتاب بدء الوحي / باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا – برقم ٣١ – ١٥/١.

وفي رواية أخرى لمسلم، عن أبي بكرة «إِذَا الْمُسْلِمَانِ حَمَلَ أَحَدُهُمَا عَلَى أَخِيهِ السِّلاَحَ فَهُمَا فِي جُرُفِ جَهَنَّمَ فَإِذَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ دَخَلاَهَا جَمِيعًا»(١).

في هذا الحديث اقتصر البيان النبوي على ذكر عقوبة اقتتال المسلمين، أو مجرد حملهم السلاح على بعضهم، مع دخول هذه الفتنة في عموم الفتن التي تحدث عنها في غير ذلك من الأحاديث، نظرا لفداحة هذا الفعل وشناعته، وإنكار الرسول(ﷺ) له، وعدم رضاه عن القيام به.

وجاء إيضاحه (ﷺ) لحكم هذا العمل الشنيع مرتكزا على أسلوب الشرط؛ لما سبق بيانه من تميز هذا الأسلوب بالبيان والإيضاح، بجانب ما فيه من إثارة المتلقي وتشويقه إلى ترقب جملة الجزاء، فإذا وردت ثبت ما فيها في ذهنه، وتمكن منه فضل تمكن، وفيه أوثر التعبير بـــ "إذا"- التي يكون معها الشرط مقطوعا بوقوعه(٢)- للإلماح إلى أن الاقتتال بين المسلمين حاصل لا محالة، ومن ثم أراد الرسول التحذير من الوقوع فيه، كما جيء بجواب الشرط جملة اسمية، من شأنها إفادة الثبوت والدوام(٣)؛ للإشارة إلى أن جزاء الاقتتال ثابت حاصل، لا مبالغة فيه، ولا تراجع عنه.

كما اشتمل البيان النبوي على الطباق بين "**القاتل**" و"**المقتول**" مع عطف الثاني منهما على الأول بالواو التي تفيد المصاحبة والمشاركة في الحكم، للإشارة إلى أنهما يستويان في الذنب الموجب دخولهما النار، وهو توفر إرادة قتل الآخر عند كل منهما، مما له عظيم الأثر في التحذير والتخويف من حمل السلاح والوقوع في فتنة الاقتتال.

---

(١) صحيح مسلم / باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما- برقم ٧٤٣٧- ١٧٠/٨.

(٢) الإيضاح بتعليق الصعيدي ١٤٠/١.

(٣) السابق ١٣٩/١.

ويلفت النظر في الأسلوب النبوي هنا ما يلي:

أولا: التعبير عن القتل بالإرادة في رواية مسلم، وبالحرص في رواية البخاري، فيما يعرف بالمجاز المرسل لعلاقة السببية، التي تجعل إرادة قتل المسلم والحرص عليه قتلا، لما لهما من أثر عظيم في إيقاع القتل وتنفيذه.

بيد أن رواية مسلم تبرز الأمر في أوله، ورواية البخاري تبرزه بعد أن تعمق في النفس وتغلغل فيها، فانتقل من مرحلة الإرادة إلى مرحلة الحرص على حصوله وإيقاعه بأي شكل من الأشكال، وذلك من شأنه التخويف من الحالتين كلتيهما، كما أن فيه وأدا للفتن في مهدها(١).

ثانيا: تعبير النبي (ﷺ) عن الطرفين بلفظ "**المسلمان**" في أول الحديث، ثم التعبير عن الطرف الثاني بقوله "**صاحبه**" **أو**"**أخيه**" دون عدوه أو خصمه، وفيه بيانٌ للمزيد من أسباب استحقاقهما العقاب المذكور، بجانب ازدراء الفعل الذي قاما به والتأفف منه، إذ النفس السوية لا يسوغ لها، ولا ترضى أن تفتك أو تخطط للفتك بإنسان كانت بينها وبينه صحبه وملاصقة، بجانب ما يربطها به من دين، يعد السلام والأمان من أبرز سماته وأوضح خصاله.

---

(١) بين العلماء خلاف حول وجوب العقاب على الهم بالمعصية دون مباشرتها أو الوقوع فيها، والذي أراه أن الإرادة أو الحرص اللذين وردت بهما روايتا الحديث الذي معنا خارج نطاق هذا الخلاف، لأن الواضح أن المقتول قد باشر المعصية ووقع فيها بحمله السلاح ومواجهته صاحبه أو أخاه، والحديث خاص بزمن الفتن التي يدعو النبي (ﷺ) المسلمين إلى اجتنابها، وعدم المشاركة فيه بأي شكل، أو بأي صورة، وخروجا من الخلاف أرى أن "معنى القاتل والمقتول في النار: أنهما يستحقانها، وأمرهما إلى الله (ﷻ)... فإن شاء عفا عنهما، وإن شاء عاقبهما، ثم أخرجهما من النار، فأدخلهما الجنة" عمدة القاري ٢/٦٧.

ثالثا: التعبير بحرف الجر "**في**" المفيد للظرفية في قوله "**في النار**" يدل أنهما في عمقها، وأنها تحيط بهما إحاطة الظرف بالمظروف، لا فرق في ذلك بين القاتل والمقتول، مما يزيد خوفَ المسلم من حمل السلاح في مواجهة أخيه، أو مجرد التفكير فيه.

رابعا: عبارة "**جُرُفِ جَهَنَّمَ**"(١) في رواية مسلم الثانية توضح جزاء رفع السلاح من غير حدوث قتال، بينما يؤكد باقي الرواية ما ورد في الروايات الأخرى من دخول كليهما النار عند قتل أحدهما صاحبه، عافانا الله تعالى من الوقوع فيما يوجب دخول النار، آمين.

*****

(١) الجرف جانب الوادي الذي يتجرف بالسيل أي يتهدم أو يخاف عليه ذلك، مما يعني أنهما على طرفها قريبان من السقوط فيها. يراجع: كشف المشكل من الصحيحين ١/٣٢٤.

المبحث الثالث
الخصائص البلاغية في
التوجيه إلى ما يجب فعله عند وقوع الفتن

- **عن أبي هريرة (ﷺ) قال قال رسول الله (ﷺ) «بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»(١).**

في هذا الحديث روايتان أخريان:

أولاهما: عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِىِّ (ﷺ) قَالَ: «إِنَّ الإِسْلاَمَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»(٢).

الأخرى: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: «إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»(٣).

وهو حديث من أعلام نبوته (ﷺ)، وفيه تآزر التشبيه والكناية والطباق والأمر في تحقيق ما يقصد إليه من بيان الفتن التي يتعرض لها المسلمون في آخر الزمان، وتوجيههم إلى ما يجب عليهم فعله في زمانها.

ففي رواياته السابقة **ثلاثة تشبيهات:**

الأول: في الرواية الأولى "**بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا**"، حيث شبه (ﷺ) غربة الإسلام في آخر الزمان بغربته عند بعثة النبي (ﷺ)، والجامع بين الحالتين "قلة العاملين بشرائعه والقائمين بوظائفه"(٤)، قال القاضي عياض

(١) صحيح مسلم / باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا – برقم ٣٨٩ – ١/ ٩٠.

(٢) صحيح مسلم / باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا – برقم ٣٩٠ – ١/ ٩٠.

(٣) صحيح مسلم / باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا – برقم ٣٩١ – ١/ ٩٠.

(٤) المجازات النبوية للشريف الرضي – شرح د. عبدالرءوف محمد الزيتي ٣٢– منشورات مكتبة بصيرتي – قم.

"ظاهر الحديث العموم، وأنّ الإسلام نشأ في أول أمره في آحادٍ من الناس وقلّة، ثمّ انتشر وظهر، ثم سيلحقه الضعف والاختلال حتى لا يبقى- أيضا- إلا في آحاد وقلة غريبا كما بدأ"(١)، قال القرطبي "ويحتمل أن يراد بالحديث المهاجرون؛ إذ هم الذين تغرَّبوا عن أوطانهم فرارًا بأديانهم، فيكون معناه: أنّ آخر الزمان تشتدّ فيه المحن على المسلمين، فيفرّون بأديانهم ويغتربون عن أوطانهم كما فعل المهاجرون، وقد ورد في الحديث : قيل : يا رسول الله ! من الغرباء ؟ قال : هم النزاع من القبائل"(٢).

والذي يبدو لي أن القول بعموم الحديث وشموله أولى بالقبول، لكونه يجمع بين القلة والغربة التي تعرض لها المهاجرون، ولا ينفي حصول المحن للمتمسكين بالإسلام في آخر الزمان.

الثاني: في قوله (ﷺ) من الرواية الثانية «**وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا**»، يقول ابن فارس: "الهمزة والراء والزاي أصل واحد لا يُخْلف قياسُه بتّةً، وهو التجمّع والتّضامّ"(٣)، وبذلك يكون الرسول (ﷺ) قد شبه انقباض الإسلام واجتماع أهله الملتزمين به بين الحرمين الشريفين بإيواء الحية وانقباضها في جحرها إذا أصابها ما يفزعها، وهو تشبيه تمثيلي تصويري يؤكد – على ما يبدو لي – غربة الإسلام في آخر الزمان، ويلمح – من وجهة نظري – إلى ما يتعرض له أهله من إيذاء وتضييق، في شتى بقاع الأرض، وأنه لا يستثنى من ذلك سوى المنطقة الواقعة بين الحرمين المكي والمدني، وكأني

(١) إكمال المعلم ٣٠١/١.
(٢) المفهم ١٢٦/٢.
(٣) مقاييس اللغة – مادة أرز.

برسول الله (ﷺ) في هذا الحديث يروي ويصور ما يحدث للمسلمين في الزمان الذي نعيش فيه.

الثالث– في الرواية الثالثة «**إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا**»، وفيه شبه النبي (ﷺ) انقباض الإيمان واجتماع أهله في المدينة بانقباض الحية إلى جحرها إذا أصابها ما يفزعها، يقول الشريف الرضي "وأصل ذلك مأخوذ من التقبض والاجتماع، يقال: أَرِز أُرُوزًا إذا كان منه ذلك، فجعل عليه الصلاة والسلام المدينة كالوجار (جحر الضبع) للإسلام، يتقلص إليها، وينضم إلى حماها، لأنها قطب مداره ونقطة ارتكازه"(١).

ولعل في إيثار الحية دون غيرها إلماحا إلى ما في حركتها من زحف والتواء، مما يشير إلى أن أروز الإيمان والملتزمين به إلى المدينة سيكون فيه نوع من الصعوبة والمكابدة، بسبب ما يتعرضون له من إيذاء ومضايقات.

ولا تعارض بين الروايتين الثانية والثالثة، فالأولى منهما تتحدث عن الإسلام بينما الثانية تتحدث عن الإيمان، وأن بينه وبين المدينة علاقه قوية، تجعل المتصفين به يؤوبون إليها، ولا يجدون الراحة والاطمئنان إلا فيها، يقول ابن حجر "قوله "كما تأزر الحية إلى جحرها" أي أنها كما تنتشر من جحرها في طلب ما تعيش به فإذا راعها شيء رجعت إلى جحرها كذلك الإيمان انتشر من المدينة، وكل مؤمن له من نفسه سائق إليها لمحبته في النبي (ﷺ)، فيشمل ذلك جميع الأزمنة، لأنه في زمن النبي (ﷺ) للتعلم منه، وفي زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم للاقتداء بهديهم، ومن بعد ذلك لزيارة قبره (ﷺ) والصلاة في مسجده والتبرك بمشاهدة آثاره وآثار أصحابه"(٢).

---

(١) المجازات النبوية ١٠٩.

(٢) فتح الباري ٤/٩٣.

ومما يلحظ مؤازرة التوكيد بإن واللام والجملة الاسمية للتشبيه في تقوية معنى غربة الإسلام، وقلة العاملين به، مع تعرضهم لشديد الأذى في آخر الزمان، بجانب التضييق عليهم، وأنه لن يسعهم إلا ما بين الحرمين الشريفين، وذلك في الروايتين الثانية والثالثة.

ويبدو لي في التوكيد نوع من إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، يتمثل في إنزال غير المنكر منزلة المنكر؛ لما بدا عليه من علامات الإنكار، المتمثلة هنا في استغراب ما يخبر به النبي (ﷺ) والاندهاش له، وعدم وروده على ذهن المخاطبين، مما دفع النبي (ﷺ) إلى التأكيد، لئلا يخالج المخاطبين أو المستمعين شك، فيقعدوا عن الاستعداد لهذه الفتن.

ولفظ "**غريبا**" كناية عن قلة المتمسكين بتعاليم الدين، كما تم إيضاحه، وفي الوقت نفسه لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي للغربة، حيث يحمل في طياته معاني البعد[1] والتفرد وإنكار الناس، وهي حالة يستشعرها الملتزمون بالدين بين أهلهم وذويهم، وتمثل نوعا من الإيذاء النفسي، يضاف إلى ما يحصل لهم من إيذاء حسي، ولا يقل شأنا وخطرا على دين المسلم عنه، فيجتمع عليهم بذلك صنفان من الأذى، وهي لفظة لها أثرها فيما أخبر به النبي (ﷺ) في قوله "فطوبى للغرباء".

وفي الحديث طابق الرسول (ﷺ) بين فعلين، هما "**بدأ**" و"**سيعود**" طباقا معنويا، لأن اللفظين غير متضادين، إذ الفعل المضاد للأول هو "انتهى"، وليس ما جاء في الحديث الشريف.

وقد أشار العلامة الرّضي إلى سر المطابقة بين "بدأ" و "سيعود" دون "سينتهي" بقوله "يعود إلى مثل الحالة الأولى في قلة العاملين بشرائعه، والقائمين

(١) لسان العرب – مادة غرب.

بوظائفه، لا أنه – والعياذ بالله – تمّحى سماته، وتدرس آياته"[1]، فلو جاء البيان مشتملا على المضاد اللفظي وهو "سينتهي" لفُهم زوال الإسلام ومحو سماته، ودراسة آياته، وهو أمر لن يحدث لهذا الدين، كما أن الرسول الله (ﷺ) لم يقصد إليه من بيانه.

والطباق هنا فيه تنبيه إلى ما يؤول إليه حال المسلمين في آخر الزمان، مما يزيدهم بصرا بحقيقة الأمر، ويدفعهم إلى الاستعداد بزيادة عمل الصالحات، والعزم على التمسك بتعاليم الدين، مهما اشتدت الفتن وعظمت الابتلاءات.

يقويه قوله (ﷺ) "**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**" بما يحمله من بشارة للملتزمين الشاعرين بالغربة في بلادهم وبين أهلهم، والذين يتعرضون للأذى بسبب التزامهم.

وهو خبر يحمل في طياته أمرا بالالتزام بتعاليم الدين والتمسك به، على الرغم مما قد يتعرض له المسلم في آخر الزمان من محن وابتلاءات، وعلى الرغم مما قد يشعر به من غربة بين الأهل وذوي القربى.

ومجيء الأمر هنا في صورة الخبر يمتاز عن الأمر الصريح في كونه يجمع بين الأمر والجزاء في آن واحد، ذلك أن "**طوبى**" كما قال ابن عباس: فرح وقرة عين، وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم، وقال قتادة: حسنى لهم، ... وقيل: الجنة، وقيل: شجرة في الجنة [2]، وفيه من الإثارة إلى الالتزام بتعاليم الدين في زمن الفتنة، واستعذاب ما يترتب عليه ما لا يخفى، بجانب ما في عبارته من وجازة واختصار، وغير ذلك مما لا يتحقق إذا جاء الأمر في إحدى صوره الصريحة.

*****

(١) المجازات النبوية / ٣٢.

(٢) المنهاج ١٧٥/٢.

- وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فِي سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ إِذْ نَادَى مُنَادِى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) الصَّلاَةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَقَالَ «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِىٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا وَتَجِىءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَجِىءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِى. ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِىءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِى يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ». فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ أَنْشُدُكَ اللَّهَ آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ سَمِعَتْهُ أُذُنَاىَ وَوَعَاهُ قَلْبِي. فَقُلْتُ لَهُ هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ ﴾ قَالَ فَسَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ(١).

(١) صحيح مسلم / باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول، برقم ٤٨٨٢- ١٨/٦.

في هذا الحديث **أربعة أوامر** تَحْفَظُ الفرد والمجتمع زمانَ الفتنة، وهي مجموعة في قوله (ﷺ) "فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ".

وأولها: قوله (ﷺ) "**فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**"، ومعناه: "ليدم على الإيمان بالله واليوم الآخر حتى يأتيه الموت وهو كذلك، فهو في الحقيقة أمر بدوام الإيمان"(١)، وتوجيه الأمر للمنية أبلغ في تأكيد الإيمان وضرورة المداومة عليه من أن يقال: فليمت وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، لما في الأول من استعداد دائم لمجيء المنية في أي وقت، وهو ما لا يتحقق في الثاني، لأنه يوحي باختيار الإنسان وقت وفاته، وهو غير صحيح.

ثانيها: قوله (ﷺ) "**وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**"، ومعناه: أن يعاملهم بما يحب أن يعاملوه به (٢).

ثالثها: قوله (ﷺ) "**فَلْيُطِعْهُ**".

رابعها: قوله (ﷺ) "**فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ**".

ولهذه الأوامر من الخصائص البلاغية ما يلي:

أولا: تمهيد الرسول (ﷺ) لها، وذلك فيما سبق من فعله وكلامه، مما يجعل الغرض من هذه الأوامر الخوف الشديد على أمته – أفرادا وجماعات –

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين – محمد البكري الصديقي الشافعي ١٤٦/٥– بدون.

(٢) يراجع السابق ١٤٧/٥.

والحرص على وحدة صفها وتماسك أبنائها، والنصح لها بما يجنبها الخطر في زمن الفتن.

فأمره (ﷺ) بأن ينادى في المسلمين للصلاة جماعة، ثم قوله بعدها "إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِىٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ"، المُفهم أنه (ﷺ) سائر على نهج إخوانه من الأنبياء، والمشير إلى أن ثمة أمورا أُوحِيَ بها إليه، وأنه يخشى من تأخير إعلامهم بها، كل ذلك مما يهيئ ويثير لاستقبال ما يأتي بعده.

وقوله (ﷺ) "وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا وَتَجِىءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَجِىءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِى. ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِىءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ" فيه تفصيل لما أجمل، وتصريح بما ألمح إليه، ليكون في التصريح بعد التلميح والإيضاح بعد الإبهام نوع من تأكيد المعنى وتثبيته بوروده مرتين، كما أنه يُحدث في النفس نوعا من الإثارة والترقب المناسبين للمقام، والمهيئين لاستقبال ما يكون من أوامر هدفها النصح والتوجيه إلى ما فيه خير الأمة ومصلحة أبنائها.

ثانيا: أن اثنين من هذه الأوامر "**فَلْتَأْتِهِ**" و "**لِيَأْتِ**" جاءا في جواب شرط يتحدث عن الفتن بصفة عامة، بينما جاء الأمران الآخران "**فَلْيُطِعْهُ**" و "**فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ**" في جواب شرط يتحدث عن فتنة الحكم بصفة خاصة، ليكون في تخصيص هذا النوع من الفتن ببيان ما يجب أن يحدث فيه نوع من الاهتمام به، ولعل السر في ذلك هو خطورته، وعظم ما يترتب عليه، وكثرة ما يحصل بين المسلمين بسببه.

ومجيء هذه الأوامر في سياق الشرط فيه – على ما يظهر لي – نوع من التوجيه المصحوب بالإقناع إلى ضرورة التزامها لما يترتب على ذلك من

مصلحة، كما أنه يوحي بأن تركها ومخالفتها فيه من المفسدة ما لا تحيط به العبارة، فقوله (ﷺ) "فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِى يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ" يدل – بطريق المخالفة – على أن من لم يفعل ذلك فلن يزحزح عن النار، ولن يدخل الجنة، وهو تحذير رهيب تنخلع له القلوب الحية، وتندفع معه إلى تحقيق ما يقصد إليه بيان النبوة.

وقوله (ﷺ) "وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ" يدل على أن طاعة الإمام الذي بايعه الناس هي الأولى والمقدمة – طالما كانت في المقدرة والاستطاعة، وفيما لا يغضب الله تعالى – وأن الخروج عليه ومنازعته له آثار وخيمة، لا يتم تجنبها إلا بضرب عنق المنازع.

ثالثا: أن الأفعال الأول والثالث والرابع جاءت مقترنة بالفاء التي تفيد مع التسبب التعقيب، الذي هي أصل فيه [1]، بينما جاء الفعل الثاني "ليأت" معطوفا على ما هو مقرون بها، وفي ذلك إلماح إلى ضرورة إتيان هذه الأفعال من غير تردد ولا بطء، إذ هي الأصوب في ذلك الزمان.

رابعا: أن ثلاثة من هذه الأوامر جاءت بصيغة المضارع المقترن باللام "**فَلْتَأْتِهِ**"، "**لِيَأْتِ**"، "**فَلْيُطِعْهُ**"، وهي صيغة "أوجب وأشد تأكيدا في نفس السامع، وفيها من المبالغة في الإلزام ما فيها"[2]، إذ من المعلوم أن صيغ الأمر تتفاوت في القوة والإبلاغ في الإلزام بالمأمور به، فأشدها مبالغة اسم فعل الأمر، لجمعه

---

(١) الجنى الداني ٩.

(٢) صورة الأمر والنهى في الذكر الحكيم د. محمود توفيق سعد ١٨– الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م – مطبعة الأمانة.

بين ما يفيده الاسم وما يفيده الفعل، ومن المعهود في لغة العرب العدول عن الفعل إلى الاسم إذا أريد المبالغة في معنى الفعل؛ (وذلك لأنه لما خرج عن معهود حاله أخرج أيضا عن معهود لفظه)[١]، فيكون العدول اللفظي إعراباً عن المبالغة في معناه، هذا بجانب ما يفيده التعبير بالاسم من إيجاز واختصار.

ويلى اسم الفعل في الإبلاغ في الإلزام بالمأمور به المضارع المقترن بلام الأمر، وأقلها إبلاغا فعل الأمر[٢].

بينما جاء الأمر الرابع على صورة الأمر الصريح "**اَضْرِبُوا**" وهو أقل إبلاغا، كما سبق إيضاحه، والسر في ذلك – على ما يبدو لي – أن الأوامر الثلاثة الأولى تخص الأفراد، والمصلحة المترتبة عليها لا يشوبها شيء من المفاسد على المستوى الفردي، أما الأمر الرابع فهو أمر بالقتال وضرب عنق المنازع، وهذا أمر لا ينبغي التساهل فيه، بل إنه يحتاج إلى كثير من إجراءات الروية والتأكد والحيطة التي تجعل تنفيذه ناجعا في وأد الفتنة، وليس سببا في اشتعالها.

خامسا: يلحظ التعبير عن الأمرين الأول والثاني "**فَلْتَأْتِهِ**"، "**لِيَأْتِ**" بلفظ الإتيان، يقول الراغب "والمجيء كالإتيان، لكن المجيء أعم، لأن الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان: قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول"[٣]، وفيه إشارة إلى ضرورة الانقياد بسلاسة وسهولة لأوامر الله تعالى فيما يخصه (ﷻ)،

---

(١) الخصائص لابن جنى تحقيق محمد على النجار ٤٦/٣ وما بعدها– الطبعة الثانية – دار الهدى للطباعة والنشر– بيروت.

(٢) ينظر صورة الأمر والنهى في الذكر الحكيم ١٨.

(٣) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني– تحقيق د/ محمد أحمد خلف الله – مادة جاء – ١٤٦ – مكتبة الأنجلو.

وفيما يخص الناس، إذ التعود على ذلك مؤذن بالثبات عليه في زمان الفتن، وعند مجيء المنيّة.

وفي الأمر الرابع "**اضربوا**" أوثر التعبير بفعل الضرب لما في جرسه المشتمل على الضاد (حرف تفخيم) والراء (حرف تكرار) والباء (حرف انفجاري) من معاني القوة والشدة، اللازمة لدفع ذلك المنازع وهزيمته وقطع عنقه، كما أوثر إسناده إلى ضمير الجمع للإشارة إلى ضرورة التوحد عند قتال ومدافعة من يخرج على الإمام الذي بايعه الناس، لأن التوحد والاجتماع من أسباب وأد تلك الفتنة والقضاء عليها، يقول صاحب سبل السلام "دلت هذه الألفاظ على أن من خرج على إمام قد اجتمعت عليه كلمة المسلمين- والمراد أهل قطر- فإنه قد استحق القتل لإدخاله الضرر على العباد"(١).

وكان **للتنكير والتعريف** أثرهما في إثارة المخاطب كي يستجيب لهذه الأوامر، إذ يطالعنا التنكير في ثلاثة مواضع:

أولها: في قوله (ﷺ) "**وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا**"، حيث جيء بالمسند إليه "**بلاء**" نكره، مع عطف "**أمور**" الموصوف بجملة "**تنكرونها**" عليه، للإشارة إلى عظم وضخامة ما يصيب الأمة الإسلامية في آخر الزمان من بلايا وفتن، لا تُعرف حقيقتها، ولا تحيط العبارة بأبعادها ولا بأنواعها، يؤازر ذلك ويقويه جرس كلمة "**بلاء**" المبدوء بحرف الباء، وهو حرف انفجاري، والذي يتوسطه حرف المد، الدال برسمه وجرسه على صعوبة الإحاطة بحقيقة هذا البلاء، لأنه لا حدود له، والمختوم بحرف الهمزة المنون، الدال بتنوينه على شدة وقع هذه الأمور وصعوبة آثارها.

---

(١) سبل السلام شرح بلوغ المرام – محمد بن إسماعيل الصنعاني – ٣/٢٦١ – الطبعة الرابعة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠- مكتبة مصطفى الحلبي.

كما أن مجيء كلمة "**أمور**" جمعا مع وجود حرف المد في وسطها، وتوالي حركات الضم فيها، وختمها بالتنوين يوحي بالكثرة والغموض وعدم إدراك كنهها، مما يدل على الشدة والضخامة، ويدفع إلى الاستعداد لها، والتطلع إلى ما يجب فعله خلالها.

ثانيها: ومثله قوله (ﷺ) "**وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ**" حيث نكر المسند إليه "**فتنة**" لما سبق ذكره من تهويل الفتن، والتخويف من مجيئها، والإلماح إلى عدم الإحاطة بحقيقتها، وفيه من الإثارة ما لا يخفى.

ثالثها: في قوله (ﷺ) "**فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ**" نكر المسند إليه "**آخر**" وأرى في تنكيره نوعا من التعميم والتحقير، المشير إلى حقارة ما أقدم عليه من منازعة الإمام الذي بايعه الناس وأعطوه ثمرة قلوبهم، وكان في إعادته معرفا بأل التي للعهد إشارة إلى ضرورة عدم التخاذل عن "إبعاده ومدافعته حتى لو أدى الأمر إلى قتاله وقتله"[1] مهما كان، وأيا كان.

وفي إفراده إشارة إلى أن المنازعة إذا قام بها فرد أو من في حكمه من الأفراد أو المجموعات، فإنه ينطبق عليها ما ينطبق عليه من الإبعاد والمدافعة، حتى لو أدى الأمر إلى قتالهم وقتلهم، حفاظا على وحدة الصف وتماسكه، و لئلا يفكر غيرهم في سلوك مسلكهم.

وأوثر التعبير بالفعل "**ينازعه**" الدال بمادته على الشدة والقوة[2] للإلماح إلى أن ما دون المنازعة كالنصح وإبداء الرأي لا شيء فيه، بل يجب على الإمام الاستماع إليه، والعمل بالصالح النافع منه، كما كان يفعل إمام الأئمة (ﷺ).

---

(١) يراجع المنهاج ٣١٨/٦، كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي – تحقيق علي حسين البواب ١٠٣/١– ١٤١٨هـ/١٩٩٧م– دار الوطن – الرياض، دليل الفالحين ١٤٧/٥، بدون دار طباعة.

(٢) يراجع مقاييس اللغة – مادة نزع.

ويؤازر التنكير في الإثارة إلى التزام الأوامر النبوية **تعريف المسند إليه** "**الفتنة**" بأل الحقيقية أو الجنسية – في قوله (ﷺ) "وَتَجِيءُ **الْفِتْنَةُ** فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ **الْفِتْنَةُ** فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ"– والدال على أن حال المؤمن مع كل فتنة تحدث أو تحل هو توقع الهلاك، لما يصاحبها من أهوال عظيمة، ومصائب ومحن شديدة، وذلك من شأنه إثارة المخاطبين إلى ترقب ما ينصح الرسول (ﷺ) بفعله مع كل واحدة من هذه الفتن.

وفي الحديث **عدة استعارات** تزيد من الحث على الالتزام بما أمر به النبي (ﷺ) من غير تردد:

الأولى: في قوله (ﷺ) "**سَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا**"، حيث شُبه البلاء بإنسان له إرادة واختيار، يمكنانه من إصابة الأمة الإسلامية في نهاية الزمان بما يكون سببا في فتنة أفرادها، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الفعل "يصيب" – الدال بمادته وجرسه المشتمل على حرف المد في وسطه على عمق الألم وشدته – على سبيل الاستعارة المكنية، التي تحذر من هذا البلاء، وتدعو إلى الاستعداد له بما يأمر به النبي (ﷺ) من الثبات على الإيمان بالله تعالى، وحسن معاملة الآخرين.

ويمكن أن تكون الاستعارة في الفعل "**يصيب**"، وذلك بتشبيه نزول البلاء وحصوله للمسلمين في آخر الزمان بالإصابة، بجامع الشدة والعمق، ثم باستعارة الثاني للأول على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، التي تخيف وتحذر من شدة ما يصيب آخر هذه الأمة، وتدعو في الوقت نفسه إلى الاستعداد لما يحصل فيه من المحن والشدائد.

الثانية: في قوله (ﷺ) "**وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ**"، حيث شبهت الفتنة بإنسان يجيء على سبيل الاستعارة المكنية الداعية إلى الاستعداد لها، أو شبه نزول الفتن

وحصولها بالمجيء على سبيل الاستعارة التصريحية، وأوثر التعبير بالفعل "**تجيء**" الدال بمادته على الصعوبة، للإلماح إلى أنه مجيء ذو خطر كبير، يلزم الاستعداد له بتهيئة النفس وعزمها التمسك بما يُنصح به.

الثالثة: في قوله (ﷺ) "**فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ**" استعارة مكنية، جعلت للمنية رغبة وإرادة تدفعها إلى أن تأتي ذلك الشخص على تلك الحالة الإيمانية المحببة إليها وإليه، وقد سبق إيضاح بلاغة توجيه الأمر للمنية في أول البيان.

الرابعة: في قوله (ﷺ) "**ثَمَرَةَ قَلْبِهِ**" استعارة تصريحية، شبه فيها الإخلاص بالثمرة للإشارة إلى أنه "لا بُدَّ من التزام البيعة بالقلب، وترك الغش والخديعة، فإنها من أعظم العبادات، فلا بُدَّ فيها من الإخلاص في النية والنصيحة"(١)، لتتجنب الأمة هذا النوع من الفتن، وتسلم منه، ومن ثم يأمن الأئمة، ويتفرغون لعمل ما فيه مصلحة الناس، وفيها تبرير للأمر بضرب عنق من ينازعهم.

وفي هذا الحديث عبر الرسول (ﷺ) عن الشخص الذي جاء لينازع الإمام الذي بايعه الناس، وأعطوه ثمرة قلوبهم بالـــ "**عنق**" في قوله "**فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ**" **مجازا مرسلا** علاقته الجزئية، إذ المقصود قتاله ومدافعته حتى لو أدى الأمر إلى قتله كما سبق ذكره، ومن البدهي أن الضرب في أثناء المدافعة والقتال لا يكون مقصورا على العنق، لما في ذلك من صعوبة بالغة، كما أنه لا يتم بسهولة ويسر إلا في حالة الاستسلام التي لا منازعة فيها.

وعليه فإن تخصيص العنق بالضرب دون غيره من الأعضاء فيه – بجانب تأكيد القتل من غير تأخر– نوع من الإهانة والإذلال، اللذين يتناسبان مع ما أقدم عليه الآخر من منازعة تؤدي إلى زعزعة استقرار الأمة وشق صفها، كما أنه يرسم صورة لذلك المنازع وقد تمكن منه المبايعون، فأوقفوه مطأطأ الرأس،

---

(١) المفهم ١٢/ ١٠٠.

منتظرا الأمر بضرب عنقه، على مرأى ومسمع من الناس، ليكون في ذلك عبرة لغيره، وتحذير للناس من أن يسلكوا مسلكه، وقد سبق بيان ما في إيثار التعبير بالفعل "**اضربوا**" من القوة والشدة اللازمة لدفع ذلك المنازع وهزيمته وقطع عنقه جزاء لفعلته، وجميع ما ذُكِر لا يتحقق إذا جاء التعبير على حقيقته، فقيل مثلا: فاقتلوا الآخر.

*****

- **وعن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قال كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ «نَعَمْ»، فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ «نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ». قُلْتُ وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ». فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ «نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا». فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ «نَعَمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ». فَقُلْتُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»**(١).

في هذا الحديث بيان لما يجب على المسلم فعله عند حصول نوعين من الفتن:

أولهما: التباس الحق بالباطل، أو الخير بالشر.

---

(١) صحيح مسلم / باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، برقم ٤٨٩٠- ٢٠/٦.

الآخر: افتراق الأمة وتناحرها.

ويلفت النظر فيه- قبل الحديث عن البيان النبوي- حرص الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان على أن يعرف من الناصحِ الأمينِ (ﷺ) كلَّ ما يتصل بموضوع الفتن من ظواهر ومظاهر، وما يجب عليه أن يفعله في أثناء حصولها، وذلك واضح من إخباره بأنه كان يسأل رسول الله (ﷺ) عن الفتن التي سماها هنا "شرا"، على سبيل المجاز المرسل، لعلاقة تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه، وفيه إلماح إلى ما يترتب عليها من تغير وتحول عن الفطرة السليمة، وإلى ما ينتاب الناس فيها من بعد عن منهج الله (ﷻ)، وما يسيطر على قلوبهم من عناد واستكبار، وعدم الخشية من الله جل في علاه، وغير ذلك مما لا يكون إلا شرا، ولا يجلب إلا شرا.

وقوله (ﷺ) "**مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**" يشير بجرسه إلى اتساع خوفه وقوة رغبته في معرفة الشر بجميع أنواعه، كما يدل على تطلعه وزيادة حرصه على أخذ التوجيهات النبوية بنوع من الجد والعزم، يؤيده تكرار سؤاله عن أنواع الشر، وسؤاله عما يجب عليه أن يفعله إذا عاش في زمانه.

وفي إفراده الضمير في قوله "**يُدْرِكَنِي**" درس يجب على كل مسلم أن يتعلمه، وهو الشعور بعدم الأمن من الفتن، وعدم الجزم بالبعد عنها، أو العافية منها.

وقد أجابه الرسول (ﷺ) عن سؤاله عما يفعله عند حصول كل واحدة من هذه الفتن **باثنين من الأوامر**، بعد التعبير بما يبين ويوضح كل فتنة من الفتن التي أخبر بها، ليكون في البيان نوع من الإثارة والتشويق إلى أخذ الأوامر النبوية بقوة وعزيمة وإصرار على الالتزام.

وأبدأ بإبراز الأساليب البلاغية التي استعملها الرسول (ﷺ) في بيان حقيقة الفتن التي أخبر بها، مع إيضاح أثرها في الإثارة إلى ما أمر به (ﷺ) في آخر حديثه.

فعند بيان حقيقة فتنة التباس الخير بالشر استعمل الرسول (ﷺ) **التنكير** في قوله "**دعاة**" وقوله "**قوم**"، لما يفيده هنا من عدم القدرة على معرفتهم، أو التمييز بينهم وبين غيرهم، نظرا لكثرتهم وعدم اختلافهم عن سائر الناس في الأقوال والأفعال.

كما استعمل **الاستعارة التصريحية** في قوله- جوابا عن سؤال الراوي: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ -"**نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ**"، حيث استعير الدخن، وهو: "تغير الطعام إذا أصابه الدخان في حال طبخه فأفسد طعمه"(١)، لما تنطوي عليه قلوب الناس في زمان الفتن من الفساد وعدم الصفاء، الذي يعكرها ويطغى على الخير الموجود بداخلها، بحيث تظهر للناس وكأنها لا خير فيها، ولا يخفى ما لكلمة "دخن" من دلالة على شيوع السواد وطمسه على القلوب، وفي ذلك تبصير للمخاطبين بتحول القلوب عن الإيمان شيئا فشيئا، وتحذير لهم كذلك منه، وفيه أيضا إيضاح لكيفية حصول الالتباس وتدرجه حتى يصل إلى أعلى درجاته.

كما استعمل النبي (ﷺ) **الكناية** في موضعين:

أولهما: في قوله (ﷺ) "**عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ**"، حيث كنّى بهذه العبارة عن ضلالهم وبعدهم عن الصواب فيما يدعون الناس إليه، وفيها إلماح إلى عدم الانصياع لهم، أو الانخداع بأحاديثهم، لأنهم في الحقيقة يدعون الناس إلى أفعال تدخلهم النار، وإن كانوا يوهمونهم أنها تدخلهم الجنة، وهي كناية تبرز مدى

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ٢٦٣- طبعة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م – المكتبة العصرية – صيدا.

الالتباس والخلط وقلب الأمور والمفاهيم الذي صار إليه الناس عامة، والدعاة خاصة، ولا يخفى ما فيها من تهويل وتفزيع مثير إلى التساؤل عما يجب فعله في ذلك الزمان العصيب، مع ترقب ما يجاب به عنه.

والأخر: في وصف هؤلاء الدعاة بقوله (ﷺ) "**مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**"، والمعنى الذي يرمي إليه الرسول (ﷺ) من تلك الكناية هو الإلماح إلى صعوبة معرفتهم، وعدم قدرة المسلم على كشف حقيقتهم، للتشابه الكبير بينهم وبين المسلمين في الخِلقة واللغة وفي الاستناد إلى القرآن والسنة وغير ذلك، ولا يخفى ما في التعبير بالمضارع "**يَتَكَلَّمُونَ**" من دلالة على تجدد كلامهم بما يتكلم به أهل الحق في كل موقف، وعند كل مناسبة.

وفي هذا التعبير الكنائي إقناع للمخاطبين بأن الفعل الصحيح مع تلك الحالة هو ما أُمر به من لزوم الجماعة، أو اعتزال الناس في زمان الفتنة والاختلاف، والذي نصح به النبي (ﷺ) في قوله بعد ذلك.

فبعد ذلك الإيضاح المشوق جاء **الأمران** النبويان الهاديان إلى ما يجب فعله في زمان كل فتنة على النحو التالي:

الأول: جيء به في صورة الخبر في قوله (ﷺ) "**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**"، إجابة عن سؤال حذيفة: فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟، وجمهور البلاغيين والمفسرين والأصوليين على أن الأمر قد يأتي في صورة الخبر[1] فيعرب عن معناه على نحو لا يكون لصيغة الأمر أن تعرب عنه، كما أنه يقام في مساق لا يكون لصيغة الأمر أن تقام فيه، فتتناغى معه[2]، ووجه مجيء

(١) ينظر المفتاح للسكاكي / ١٥٥، المطول على التخليص / ٢٤٦، شروح التلخيص ٢٣٨/٢، الإشارة إلى الايجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام / ٢٧.

(٢) صورة الأمر والنهى في الذكر الحكيم ٧٢.

الأمر هنا في صورة الخبر هو الإلماح إلى أن لزوم جماعة المسلمين وإمامهم في تلك الحالة العصيبة من الأمور المسلم بها، والتي لا تحتاج إلى أن يؤمر بها أمرا صريحا، لكونها من البدهيات، التي لا تحتاج إلى تكليف.

ويُلحظ فيه التعبيرُ بالفعل "**تلزم**" الدال بمادته على المصاحبة الدائمة التي لا انفكاك معها، يقول ابن فارس "اللام والزاي والميم أصلٌ واحد صحيح، يدلُّ على مصاحَبة الشّيء بالشيء دائماً، يقال: لَزِمه الشَّيءُ يَلْزَمُه، واللِّزَام العذاب الملازم للكُفَّار"(١).

كما يلحظ تقديم "**جماعة المسلمين**" على "**إمامهم**" لما فيه من الإلماح إلى أن اتباع الجماعة هو الأصل، وأن الإمام يأتي تبعا لها، لأنه فرد منها، وذِكْرُه بعدها من باب ذكر الخاص بعد العام، لما له من خصوصية ومكانة، ولأن وجوده فيها عامل من عوامل الاستقرار وجمع الكلمة ووأد الفتنة.

والآخر: الفعل "**اعتزل**" في قوله (ﷺ) "فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ"، جوابا عن قول الراوي: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟.

وفي كلامه (ﷺ) ما يشير إلى أن "فرقاً وطوائفَ وأحزاباً ستخرج تباعاً، مما يدل على أن هنالك اختلافاً سيقع، وأنه سيؤدي إلى التفرق والتحزب"(٢)، ومن ثم جاء نصحه (ﷺ) باعتزال الفرق الناجمة عن ذلك، معبرا بفعل الأمر "**اعتزل**" الدال بجرسه على الصرامة والحزم، وبمعناه على المفارقة والتنحي(٣)، كما أنه

---

(١) مقاييس اللغة – مادة لزم.

(٢) الفوائد العشر من حديث حذيفة – أبو سيف خليل بن إبراهيم العبيدي العراقي ١/٥٠ – بدون.

(٣) يراجع لسان العرب – مادة عزل.

يصور المخاطب أو القارئ منعزلا عن الناس عند افتراقهم واختلافهم، وأنه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

كما عبر النبي (ﷺ) عن المفعول بلفظ "**الفرق**" المؤذن بالتفرق والاختلاف، وهو أمر تعافه نفس المؤمن السوية وتمقته، لا سيما إذا جيء به عقب ما يوحي باجتماع كلمة المسلمين والتئام جماعتهم، كما أشار (ﷺ) إلى المفعول باسم الإشارة المختص بالبعيد "**تلك**"، وأكده بلفظ "**كلها**" للإلماح إلى عدم رضا الرسول (ﷺ) عن هذا الانقسام، ونزوله من نفسه منزلة الأمر المستبعد المرفوض، كما أنه يشير إلى بُعد تلك الفرق جميعها بلا استثناء عن الصواب.

وفي قوله (ﷺ) "**وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**" استعمل رسول الله (ﷺ) الحرف "**لو**" الدال على امتناع تال يلزم لثبوته ثبوت تاليه[1] لتأكيد بغضه ﷺ للفُرقة وعدم رغبته في حصولها.

والتعبير بالفعل "**تعض**" يمكن أن يكون كناية عن التمسك الشديد بما يتبقى من أصول الدين، لأن فيه النجاة من الفتن، والأمن من آثارها، ويمكن أن يكون من باب الاستعارة التصريحية التي شبه فيها التمسك بالعض بجامع الشدة والقوة.

وفي قوله "**عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ**" استعارة تصريحية شبه فيها ما يبقى من أصول الدين في زمان الفتن بأصل الشجرة في الرسوخ والثبات وبقاء الأمل في العودة، مما يعني "أن دوحة الإسلام الوارفة ستعصف بها الرياح الهوج، فتحطم أغصانها فلا يبقى إلا أصلها الثابت الذي يقف متحدياً الأعاصير، عندئذ يجب على المسلمين أن يحتضنوا هذا الأصل ويُفدوه بالنفس والنفيس، لأنه سينمو مرة

(١) الجنى الداني ٤٥.

أخرى رغم شدة رياح السموم"[1]، كما أن إيثار كلمة "**أصل**" هنا يلمح إلى ضرورة البُعد عما يسبب الخلاف والنزاع من الفروع، والتمسك بالأصل الذي يعيد جمع الكلمة ووحدة الصف، ومن ثم يكون الأمر المقصود إليه من هذا البيان النبوي هو: **ضرورة اعتزال الفرق المتناحرة في زمان الفتنة، مع الالتزام بالأصول التي لا خلاف عليها، ولا انشقاق معها.**

وفي قوله (ﷺ) "**حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**" عبر النبي (ﷺ) بالحرف "**حتى**" الدال هنا على انتهاء الغاية[2]، للإلماح إلى ضرورة الالتزام بما أمر به النبي (ﷺ) إلى نهاية العمر، وعدم التراجع عنه في أي وقت من الأوقات.

وجيء بـــ "**الموت**" فاعلا للفعل "**يدركك**" لكونه أبلغ من أن يقال : حتى تموت على ذلك، إذ التعبير النبوي يدل على جهل الإنسان بميعاد موته ويذكّره بتلك الحقيقة، مما يدفعه إلى ضرورة الالتزام خشية أن يأتيه الموت وهو على حالة غير الحالة التي نصح بها رسول الله (ﷺ)، وهو ما لا يفهم إذا جاء التعبير بغير ما عبر به الرسول المكرم (ﷺ)، ولا يخفى ما في التعبير من استعارة مكنية، جعلت الموت كائنا حيا، ثم حذفت المشبه به، ورمزت إليه بالفعل "**يدرك**".

ومن الممكن أن يكون في ذكر الموت إلماح إلى ما قد ينزل بالمعتزل من ابتلاء وتنكيل جرّاء اعتزاله وتمسكه بأصول الدين، ومن ثم يكون في الحديث – بجانب ما سبق– **أمر بالصبر على البلاء في زمن الفتنة.**

---

(١) الفوائد العشر ١/٥٠.

(٢) الجني الداني ٩٢.

وفي التعبير بالحرف "**على**" المفيد للاستعلاء، استعارة تصريحية تبعية في الحرف، شُبه فيها البقاء على الحالة التي نصح بها النبي (ﷺ) بالاستعلاء، بجامع التمكن، ثم سرى التشبيه من الجزئيات إلى الكليات، فاستعير "على" للبقاء والاستمرار وعبر به عنه، تأكيدا لضرورة الاعتزال مع التمسك بأصول الدين، وعدم التفكير في شيء غيره، وفي إيثار التعبير باسم الإشارة المخصوص بالبعيد "**ذلك**" والعائد إلى ما أمر به، إلماح إلى رفعة المأمور به وبعده في المكانة والمنزلة.

وعلى الجملة فقد جاء البيان النبوي الآمر باعتزال الفرق كلها وعدم الانضمام إلى أي منها، مع التمسك بأصول الدين ممزوجا بالتصوير الذي يخلع عليه نوعا من التمثيل الموضِّح لما يجب أن يتم، حتى لا يلتبس الأمر على أحد من المسلمين.

*****

- **وعنه أيضا قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ فَجَاءَ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَنَحْنُ فِيهِ فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ نَعَمْ. قُلْتُ هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ قَالَ «نَعَمْ». قُلْتُ فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ «نَعَمْ». قُلْتُ كَيْفَ قَالَ «يَكُونُ بَعْدِى أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَاي وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ». قَالَ قُلْتُ كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ قَالَ «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»**[1].

(١) صحيح مسلم / باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، برقم ٤٨٩١- ٦/٢٠.

هذا الحديث قيل في موقف مغاير للموقف الذي قيل فيه الحديث السابق، على الرغم من أن الراوي واحد، وهو حذيفة (ﷺ)، ودليلُ ذلك الفروقُ التعبيريةُ بين الحديثين في بعض التراكيب، والأمر النبوي المغاير لما أمر به الرسول (ﷺ) في الحديث الذي سبقه.

فمن الفروق التعبيرية:

أولا: قوله (ﷺ) عن القوم الذين لا يستنون بسنته ولا يهتدون بهديه "**تعرف منهم وتنكر**"، وهي الجملة التي لم ترد في الحديث الذي معنا.

ثانيا: قوله (ﷺ)هنا عن هؤلاء القوم "**أئمة**"، بينما عبر عنهم هناك بقوله "**دعاة**" و"**وقوم**".

ثالثا: قوله (ﷺ) في الحديث الذي بين أيدينا عنهم أيضا "**وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ**"، وهي عبارة خلا منها الحديث السابق.

وهي فروق تشير إلى أن تلبيس الحق بالباطل أو الخير بالشر يحدث بصورة متدرجة؛ ويقع فيه الناس من غير أن يدركوا حقيقته، وأن الدعاة يتبنونه أولا، ثم يتبناه الأئمة والحكام ثانيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان لهذه الفروق أثرها في مغايرة أمر النبي (ﷺ) لما نصح به في الحديث السابق، مما يدل على أن أمره (ﷺ) كان قاصدا إلى ما يناسب كل فتنة، حرصا على مصلحة السائل، وغيره من أفراد أمته، وسيأتي إيضاح ذلك بعد قليل.

وفي سياق بيان النبي (ﷺ) للشر الذي سأل عنه الراوي يبرز أسلوب التنكير في موضعين:

أولهما: في قوله (ﷺ) "**يَكُونُ بَعْدِى أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَاي وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي**"، حيث أشار بتنكير المسند إليه "**أئمة**" إلى كثرة من يفعل ذلك ممن يلون أمور المسلمين بعد زمان رسول الله (ﷺ)، وجيء بالظرف "**بعد**" غير مسبوق بـــ "من" للإشارة إلى بُعد هؤلاء زمنيا عن زمان النبي (ﷺ)، بمعنى أنهم لن يكونوا بعده مباشرة.

ويبدو لي في التنكير كذلك ضرب من التحقير والتوبيخ والتحذير، يؤيده التعبير عنهم بكلمة "**أَئِمَّةٌ**" دون غيره كـــ "ولاة" أو ما شابهه، والوصف بجملة "لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَاي وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي"، إذ يلمح الأول إلى أنهم خالفوا ما يجب أن يكونوا عليه من صلاح وتقوى، لأن الإمام: "كلٌّ من اقتُدِي به وقُدِّم في الأمور، ومن ثم كان النبي (ﷺ) إمام الأئمة"(١)، بينما يؤكد الوصف بالجملة المذكورة عزوفهم عن الاقتداء برسول الله (ﷺ) واتخاذهم قدوات غيره، فيما يخص أعمال الإمامة وواجباتها، وفيما يتصل بجميع شؤونهم، وأمثال هؤلاء لا يرجى من ورائهم خير للأمة، ومن ثم كان في تنكير ذكرهم دعوة إلى الحذر منهم، واتقاء شرورهم، لأنهم لا يخافون الله تعالى في رعيتهم، ولا يُعرف لهم منهجٌ يسيرون عليه في سياستهم.

والآخر- في قوله (ﷺ) "**وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ**" حيث جاء المسند إليه "**رجال**" نكرة لما سبق بيانه في الموضع السابق، من التكثير والتحقير والتحذير، وليتسنى وصفهم بجملة "قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ"، والتي شَبه فيها الرسول (ﷺ) قلوبَ هؤلاء الرجال بقلوب الشياطين تشبيها حذفت منه الأداة والوجه، ليكون ذلك أدل على تمام المشابهة بين الطرفين.

---

(١) يراجع مقاييس اللغة – مادة أمّ.

وآثر التعبير بالـــ "**قلوب**" دون غيره على سبيل المجاز المرسل، لما للقلب من تأثير على بقية أعضاء البدن، إذ هو المتحكم في أفعال البشر لقول النبي (ﷺ) "...أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ"(١)، يقويه التعبير بلفظ "**جثمان**" بما يدل عليه من التلبد بالأرض، يقول ابن منظور: "جثَم الإنسانُ والطائرُ والنَّعامةُ والخِشْف والأَرْنبُ واليَرْبوعُ يَجْثِم ويَجْثُم جَثْماً وجثُوماً، فهو جاثِم: لَزِم مكانه فلم يَبْرَح أَي تَلَبَّد بالأَرض"(٢)، مما يدل على أن الشياطين تسيطر عليهم سيطرة تامة، وفيه إلماح إلى قسوة قلوبهم، الموجبةِ شدةَ بأسهم على رعيتهم، وقوةَ بطشهم بهم، إذ لا يغيب ما بين الشياطين وبين بني آدم من عداوة موروثة، ولا يخفى ما في التشبيه من صورة مخيفة مفرعة، باعثة إلى السؤال مع ترقب الجواب عما يجب فعله في ذلك الوقت العصيب.

وأوثر التعبير عنهم بلفظ "**رجال**" المؤذن بالكمال تبكيتا وازدراء، حيث أنعم الله تعالى عليهم بنعمة الرجولة، لكنهم لم يتصرفوا وفق مقتضياتها(٣)، وقد يكون في التعبير عنهم بها إشارة إلى أنهم ذكور، ولكن ليس لهم من صفات الرجولة شيء، فقد "فرق القرآن الكريم تفريقا واضحا بين الرجولة وكل من الذكورة والفحولة، وأثبت أن للرجولة سمات وصفات وأعمالا لا تعد الذكورة أو الفحولة أساسا فيها، ولا شرطا من شروطها، حيث كان من اللافت للنظر استعمال القرآن هذه الكلمة في حق أناس حالت بينهم وبين الكمال البشري أسباب خارجة

---

(١) رواه البخاري / كتاب بدء الوحي – برقم ٥٢، ومسلم / باب أخذ الحلال وترك الشبهات – برقم ٤١٧٨.

(٢) لسان العرب – مادة جثم.

(٣) يراجع الرجولة في القرآن موقعا وبلاغة ٢٤٦.

عن الإرادة، مما يؤكد أن الرجولة ليست بالذكورة ولا بالفحولة، وإنما هي بالمواقف والأعمال"(١).

بناءً على ما سبق بيانه جاء التوجيه النبوي المجيب عن سؤال الراوي "**كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟**"، والذي يظهر فيه – من خلال ندائه رسول الله (ﷺ) – نوع من خوفه وإشفاقه ورجائه في أبوة رسول الله وإثارة ما يتحلى به من شفقة وحرص على أتباعه، كي يرشده إلى ما يجب أن يفعله ويقوم به في تلك الحالة الشديدة، كما أن النداء بوصف الرسالة دال على أنه مستعد لقبول ما يأمر به النبي (ﷺ) من غير جدال أو تشكك أو تردد، لأنه الرسول الذي لا ينطق عن الهوى.

جاء التوجيه النبوي هنا آمرا بالسمع والطاعة للأمير مرتين:

أولاهما: في صورة الخبر في قوله "**تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ**"؛ لما تفيده هذه الطريقة التعبيرية هنا من الإشارة إلى أن السمع والطاعة للأمير من الأمور البدهية التي يجب أن يأتيها المسلم دائما من غير حاجة إلى تكليف أو توجيه، طالما أنه لم يؤمر بمعصية الله، وأوثر التعبير بالمضارع في الفعلين "**تَسْمَعُ وَتُطِيعُ**" للإلماح إلى أن يكون ذلك ديدنا وسمة يتحلى بها المخاطب، ويتجدد حصولها منه مع كل أمر لم يكن من المعاصي في شيء.

والأخرى– الأمر الحقيقي الواقع في جواب الشرط في قوله "**وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**"، حيث تعانق الشرط والأمر في تأكيد معنى السمع والطاعة للأمراء– الموصوفين بالصفات السابق ذكرها– مع حصول الأذى في بدن المسلم أو في ماله؛ لما يلي:

(١) يراجع الرجولة في القرآن موقعا وبلاغة ٢٥٤.

أولا: الحرص على وحدة الصف وتماسكه، فلأن يؤذى الفرد في بدنه وماله ويتحمل هذا الأذى، خير من أن يتفرق الصف، وتذهب هيبة الأمير، الذي يعد وجوده سببا من أسباب وحدة الأمة واجتماع كلمتها.

ثانيا: أن مقاومة فرد لأمثال هؤلاء لن تجدي، بل ربما يزداد تنكيلهم به، ويتضاعف إيذاؤهم له، فكان الأمر بالسمع والطاعة لهم من أجل اتقاء المزيد من شرورهم، نظرا لقسوة قلوبهم، وشدة بعدهم عن منهج النبي (ﷺ).

ثالثا: أن الأمر بالسمع والطاعة فيه نوع من وأد الفتنة في مهدها، وإخمادها قبل أن تشتعل، ولا يمكن السيطرة عليها.

*****

- **وعن زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِىُّ (ﷺ) فِي حَائِطٍ لِبَنِى النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ – قَالَ كَذَا كَانَ يَقُولُ الْجُرَيْرِىُّ – فَقَالَ «مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْبُرِ؟». فَقَالَ رَجُلٌ أَنَا. قَالَ «فَمَتَى مَاتَ هَؤُلاَءِ». قَالَ مَاتُوا فِي الإِشْرَاكِ. فَقَالَ «إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِى أَسْمَعُ مِنْهُ». ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ». قَالُوا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». قَالُوا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. قَالَ «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ». قَالُوا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ قَالَ «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ». قَالُوا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**[1].

(١) صحيح مسلم / باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار، برقم ٧٣٩٢– ٨/١٦٠.

وفيه استفهم النبي (ﷺ) عن أصحاب الأقبر التي مروا بها، وعن وقت وفاتهم، وعلى الرغم من كونه استفهاما حقيقيا، إلا أن له أثرا قويا في تهيئة المخاطبين وإثارتهم إلى تلقي ما جاء بعده من أوامر ناصحة بالمداومة على التعوذ بالله تعالى من عذاب النار، ومن عذاب القبر، ومن الفتن ما ظهر منها وما بطن، ومن فتنة الدجال.

فالاستفهام إذا كان لطلب الفهم والمعرفة، يعد استفهاما حقيقيا لا يُحمل على غير هذا الوجه، وقد يستعمل في البيان الأدبي لأغراض أخرى ذكرها البلاغيون[1]، ويبقى الغرض الرئيس منه هو التنبيه و"إثارة حركة الفكر والحس ليلتفت بحضور واع إلى السياق، فيستوعبه بخفاياه ودقائق همسه وكل حواشيه، فيلتقط المراد"[2] يقول الإمام "واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا

(١) دلالة الاستفهام على المعاني التي ذكرها البلاغيون من تعجب وإنكار وتهويل وغيرها قضية بلاغية عرض لها كثير من العلماء في القديم والحديث، وهم بين قائل: بأن المعاني غير الحقيقة المستفادة من الاستفهام وغيره من أساليب الإنشاء الطلبي معان مجازية (ينظر: عروس الأفراح ٢/٢٩٠، والمطول/٢٣٥، وحاشية السيد على المطول /٢٣٥)، وقائل بأنها من باب الكناية (ينظر: حاشية الدسوقي ٢/٢٩٢)، وقائل بأن هذه المعاني من مستتبعات التراكيب (ينظر: عروس الأفراح ٢/٣٠٦)، ولست هنا بصدد المفاضلة بين هذه الآراء، حيث قام بذلك عدد من العلماء، منهم الأستاذ الدكتور/ محمود توفيق سعد، والأستاذ الدكتور/ محمود موسى حمدان، وأراني مقتنعا بوجهه نظرهما في القول بأن هذه المعاني من مستتبعات التراكيب (ينظر: الاستفهام القرآني دقائق ورقائق د/ محمود توفيق سعد ٧/ وما بعدها – أساليب الإنشاء الطلبي و طرق إفادتها غير معانيها الحقيقية د. محمود موسى حمدان مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية– العدد الثاني عشر).

(٢) دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى ٢٤٤.

بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه لتنبيه السامع، حتى يرجع إلى نفسه... ويعي بالجواب"[1].

جاءت الأوامر النبوية الناصحة بما يجب فعله حيال الفتن هنا بعدما هيأهم الرسول (ﷺ) لتلقيها بالاستفهام، وبعد تأكيده ابتلاء أمته في قبورها، وإخباره بسماع عذاب أصحاب هذه القبور، في قوله "**إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِى أَسْمَعُ مِنْهُ**" ليكون ذلك أيضا برهانا مثيرا إلى تلقي أوامره وتوصياته بالقبول والالتزام، ولا يخفى ما فيه من حرص ومحبة.

وأوثر التعبير بـــ "**تعوذوا**" لما في مادته وجرسه – الذي يتوسطه حرف الواو – من معاني الالتجاء والاحتماء والانزواء وإظهار الفقر، يقول ابن فارس "العين والواو والذال أصلٌ صحيح يدلُّ على معنىً واحد، وهو الالتجاء إلى الشَّيء، ثم يُحمَل عليه كلُّ شيء لصق بشيءٍ أو لازَمَه. قال الخليل: تقول أعوذ بالله، جلَّ ثناؤُه، أي: ألجأ إليه تبارك وتعالى"[2]، وجاء أمره (ﷺ) بالتعوذ من هذه الفتن مسندا إلى ضمير الجمع، ليشمل المخاطبين وغيرهم ممن يصل إليهم بيانه الناصح.

وعُلق الأمر باسم الجلالة الأعظم "**الله**" لما يشعر به من القوة والمهابة والقهر والغلبة وغيرها من المعاني اللازمة في مقام الدعوة إلى الالتجاء والاحتماء، وفي تعديته بحرف الباء الدال على الإلصاق إشارة إلى أن النجاة من هذه الفتن لن تكون إلا بالقرب الشديد من الله (ﷻ)، لأنه جل جلاله وحده القادر على الإنجاء منها.

---

(١) دلائل الإعجاز ١١٩.

(٢) مقاييس اللغة – مادة عوذ.

وفي تكرار الأمر بالتعوذ مع كل فتنه على حدها ما يشعر بهولها، وجدارة الخوف منها والعمل لأجلها، وأهمية الدعاء والتضرع لاجتنابها، "وقدم عذاب النار في الذكر مع أن عذاب القبر مقدم في الوجود؛ لكونه أشد وأبقى وأعظم وأقوى"(١).

والأمر بالتعوذ من الفتن عامة بعد الأمر بالتعوذ من فتنة القبر وعذابه من باب ذكر العام بعد الخاص، دعا إليه كون ما سبقه لا يخلو من فتنة وابتلاء، مما يستدعي التنبيه إلى أن الفتن بجميع أنواعها توجب اللجوء إلى الله تعالى والاحتماء به سبحانه للنجاة منها.

وجيء بجملة "**مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**" للإيماض إلى أن ثمة فتنا غير ما يعرفه المسلمون لا علم لهم بها، ومن ثم كان الطباق بين "**ظهر**" و "**بطن**" جامعا لها.

وخصت فتنة الدجال بالأمر بالتعوذ منها مع دخولها في عموم الفتن "لأنها تجر إلى الكفر المفضي إلى عذاب جهنم"(٢)، كما أن في ذلك إلماحا إلى اختلافها عن كثير من الفتن في الشدة والقوة، مما يستدعي إفرادها بتعوذ مخصوص. نجانا الله تعالى من ذلك كله... آمين.

*****

- **وعن أبي بكرة أن رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) قال «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ أَلاَ ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا أَلاَ فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ**

(١) مرعاة المفاتيح ٢٢٤/١.

(٢) السابق.

بِأَرْضِهِ». قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلاَ غَنَمٌ وَلاَ أَرْضٌ؟ قَالَ «يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ ثُمَّ لْيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ». قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَّيْنِ أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟ قَالَ «يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[1].

في هذا الحديث يؤكد الرسول (ﷺ) وقوع الفتن بعده بكثرة وتنوع، ويلفت النظر إلى ذلك مستعملا "**إنّ**" و**السين** التي تُخلّص المضارع للدلالة على المستقبل[2]، و"**ألا**" التي يعد تنبيه المخاطب من خصائصها وسماتها[3]، بجانب تنكير المسند إليه "**فتن**" و "**فتنة**"، مع الإخبار بضرورة الحرص على تجنبها وعدم السعي إليها من خلال الطباق بين "**القاعد**" و "**الماشي**"، وبين "**الماشي**" و"**الساعي**"، وذلك كله من باب التمهيد والتشويق لما يعتزم النبي (ﷺ) أمر المخاطبين به، عند نزول الفتنة في ديار أحدهم أو بعضهم.

حيث أرشد (ﷺ) من يحصل له ذلك إلى أن يلحق بإبله أو غنمه أو أرضه في قوله «**أَلاَ فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ**»، وجاء إرشاده إلى ذلك بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر "**فليلحق**"، لما تحمله من إبلاغ يشعر بضرورة الالتزام، كما جاء مقرونا بالفاء التي تفيد إلى جانب التسبب معنى التعقيب؛ للإلماح إلى ضرورة الإسراع في اللحاق بالإبل أو الغنم أو الأرض وعدم التردد في ذلك، تجنبا للفتنة، وللأمن من أضرارها.

---

(١) صحيح مسلم / باب نزول الفتن كمواقع القطر– برقم ٧٤٣٢– ١٦٩/٨.

(٢) الجنى الداني ٨/١.

(٣) الجنى الداني ٦٤/١.

وفي ذكر الغنم والإبل والأرض **كناية** عن **ضرورة الاعتزال مع الاشتغال بما يفيد ويعمر في مواجهة ما يخرب ويدمر**، وفيها سد للطرق المؤدية إلى الفتن، وإغلاق للأبواب المفتوحة عليها، إذ من الممكن أن يكون الاعتزال من غير عمل أو شُغلٍ من أسباب العودة إلى ساحة الفتنة والمشاركة فيها، ومن ثم كان الحث على الانشغال بما ذكر اجتنابا لذلك.

وفي الحديث **أمران** آخران، أجاب بهما النبي (ﷺ) عن سؤال من قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلاَ غَنَمٌ وَلاَ أَرْضٌ؟"، وهما:

الأول: قوله "**يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ**" وهي عبارة تحمل معنى عميقا ومهما، يجب فهمه والحرص على الالتزام به في وقت حصول الفتن، ألا وهو تعطيل السيف وغيره من آلات الحرب عن أن تكون وسيلة قتل، وفي ذلك إلماح إلى ما يحتمل حصوله من قتال بين المسلمين، ومن ثم جاء الأمر به وأدا للفتنة، أو تخفيفا من اشتدادها.

وكان في مجيء الأمر على صورة الخبر هنا، والتي أوثر فيها التعبير بالمضارع "**يعمد**" و "**يدق**" مزية استحضار الحالة كأنها ماثلة مشاهدة، حيث رسم لنا التعبير النبوي صورة للمسلم الراغب في النجاة من الفتن وهو يمسك بالسيف أو غيره من آلات القتل والحرب، ويقوم بتعطيلها، ليقطع الطريق على نفسه الضعيفة من أن تسول له المشاركة فيما يمكن أن يحدث من قتال لأي سبب كان(١).

الآخر: قوله "**ثُمَّ لْيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ**"، وهو أمر بالفرار من الفتنة واعتزالها "**لينج**"، وجيء به في صورة المضارع المقترن باللام لما تحمله من

(١) أرى أننا في حاجة إلى دراسة تُخصصُ للوقوف على أسرار مجيء الأمر في صورة الخبر في بيان النبوة، لما لهذه الصورة من دلالات معبرة، وتصاوير موحية بمعان رائقة.

إبلاغ يدفع إلى الالتزام من غير تردد ولا تأخر، وقدم الأمر "**لينج**" على الشرط وفعله "**إن استطاع النجاة**" للإشارة إلى أن الاعتزال مقدم على أي عمل آخر وأنه من أولى الأولويات في تلك الحالة، إذ البقاء في مكان الفتن لا يؤمن فيه على الفرد من الاشتراك فيها بأي شكل من الأشكال، كما عبر فيه عن الاعتزال بفعل النجاة **مجازا مرسلا** لعلاقة تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه؛ لتأكيد أن الاعتزال لن يترتب عليه إلا النجاة من أي شيء يحدث زمان الفتنة وأوانها.

وفي قوله (ﷺ) في آخر بيانه عما يجب على المسلم فعله إذا نزلت الفتن بأرضه "**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**"[1] نداء للمولى (ﷻ) "**اللهم**"، واستفهام يقصد منه تقرير المخاطبين بقيامه بتبليغ ما عنده من وحي في هذا الموضوع بصفة خاصة، وفي غيره بصفة عامة "**هل بلغت؟**" مع تكرار ذلك ثلاثا؛ وقرنَ النبي (ﷺ) النداء بالاستفهام والتكرار "ليكون أكثر وقعاً وتعظيماً وحفظاً في خواطر المخاطبين، والمعنى: الله تعالى شاهدي على تبليغ هذا الأمر حتى لا ينكر أحد قيامي بتبليغه يوم القيامة"[2]، وفيه من نوع من التعظيم والتهويل والتخويف من الإقدام على مخالفة أوامره الواردة في الحديث، والتي من شأنها تحقيق السلامة من الفتن، والتخفيف من شدتها، أو وأدها في مهدها، وكأني برسول الله (ﷺ) يستشعر من وراء تعبيره بهذه الجملة تعمد المسلمين مخالفة أوامره في زمان الفتن، فأراد أن يحذرهم من ذلك، نسأل الله الثبات والسلامة.

---

(١) ورد هذا التعبير النبوي في مقامات محدودة منها: قتل النفس واستحلال الدماء، ومنها الغلول واستحلال الأموال العامة، وغير ذلك من المقامات، التي أرى أننا نحتاج دراسة تدلنا على أسباب حرص النبي (ﷺ) على التعبير بهذه الجملة في سياقها.

(٢) مشكاة المصابيح ٧٦/٦ (بتصرف).

وقوله (ﷺ) "**يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**" جوابا عن سؤال أحد المخاطبين "**يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَّيْنِ أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟**" يلفت النظر فيه قول النبي (ﷺ) "**إثمك**" والذي أضاف فيه الإثم إلى ضمير المخاطب السائل مع أنه أخبر بأنه مكره، وهذا ما يفسره قول النبي (ﷺ) "**إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**". **قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ:** «**إِنَّهُ قَدْ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ**». وفي رواية البخاري "إنه كان حريصا على قتل صاحبه"(١)، مما يعني أن الاستسلام للإكراه فيه إثم، لأن احتمال تفاعله مع من أكرهه قائم وحاصل، ومن ثم يعد شكلا من أشكال المشاركة في الفتن، وفيه أمر بالاعتزال التام، وعدم الاستسلام للإكراه حتى وإن ترتب على ذلك الموت، فلأن يقتل المسلم خير له من أن يشارك في قتل إخوانه، نسأل الله تعالى السلامة.

وما أمر به النبي (ﷺ) في هذا الحديث يؤكد ما أمر به فيما سبق ذكره مما يجب على المسلمين فعله في زمان الفتنة وأوانها، ويزيد عليها المعاني التي أشرت إليها في البيان، وهي:

- الأمر باعتزال الفتنة مع الانشغال بما يعمر في مواجهة ما يخرب ويدمر.
- الأمر بتعطيل السيف وغيره من آلات الحرب في زمان الفتنة.
- الأمر بالحرص على النجاة لأن التراخي فيها لا يؤمن معه الاشتراك في الفتنة.

---

(١) صحيح مسلم / باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما- برقم ٧٤٣٤- ١٦٩/٨، صحيح البخاري / كتاب بدء الوحي / باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا – برقم ٣١ – ١٥/١.

• الأمر بعدم الاستسلام للإكراه على الاشتراك في الفتن لأن فيه نوعا من الذنب.

وهي كلها أوامر تدل على أن التوجيه النبوي متدرج، متصاعد، كما أنه مناسب لكل فتنة، ويتعامل مع كل واحدة منها بما يحقق المصلحة الفردية والجمعية.

نعوذ بالله تعالى من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

*****

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير البريات، وخاتم النبوات، وبعد،،،

فقد خلصت هذه الدراسة التي جاءت في مقدمة وثلاثة مباحث إلى عدد من النتائج والتوصيات، على النحو التالي:

- **النتائج:**

أولا: أن بيان الرسول(ﷺ) عن الفتن جاء مفعما بأساليب الإثارة والتهويل والإيضاح، كالتنكير والاستفهام والتشبيه والمجاز بنوعيه والطباق والمقابلة والتقسيم، وغيرها من الأساليب التي يستلزمها الحديث في أمر غيبي خطير، لا علم للمخاطبين به؛ تحقيقا لهدفين:

أولهما: إعلام المسلمين بحقائق الفتن؛ تبليغا للرسالة، وأداءً للأمانة، بكل ما فيها من خير وشر.

الآخر: الحث على الاستعداد لها، والتحذير من إثارتها، والإرشاد إلى ما يجب فعله عند حصولها.

ثانيا: لأن القلب هو مناط الفتن ومقصدها، وله أثر كبير في قبولها وإنكارها، دعا البيان النبوي إلى الاهتمام بما يجعله قادرا على إبصار الفتن ومعرفتها، وما يمكِّنه من إنكارها وعدم الاشتراك فيها، من خلال:

- خصيصة الأمر الصريح وغير الصريح بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة، لما لها من أثر كبير عليه.
- ومن خلال خصيصة المجاز المرسل الذي يبرز القلب متحكما في الناس، موجها لهم إلى قبول الفتن أو إنكارها.

ثالثا: كان البيان النبوي واضحا في إبراز ما تقوم به الفتن من تقسيم الناس وتصنيفهم، مع إيراد ما يدل على استحسان الرسول (ﷺ) بعض هذه الأقسام، واستقباحه البعض الآخر، من خلال أساليب التقسيم والمقابلة والطباق والتشبيه وغيرها.

رابعا: حفل البيان النبوي الشريف بما يرشد إلى وأد الفتنة في مهدها، وذلك من خلال الخصائص البلاغية الآتية:

أ- الأمر بضرب عنق من يسعى إلى الفتنة، ويعمل على إيقاظها.

ب- المجاز المرسل الذي يفيد الترهيب من الخروج على الجماعة، ومنازعة الأمير الذي بايعه الناس وأعطوه ثمرة قلوبهم، ومن الموت وليس في العنق بيعة.

ت- الأمر بالسمع والطاعة المقرون بالأمر بالصبر على الأذى، لا سيما إذا كان هذا الأذى فرديا، غير جماعي، ولم يكن يمس أمرا من أمور الدين.

خامسا: حفل البيان النبوي أيضا بما يرشد المؤمن الراغب في النجاة من الفتن إلى ما يحقق له ذلك، من خلال الخصائص الأسلوبية التالية:

- الأمر بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل حصول الفتن.
- الأمر باعتزال الفتن عند حصولها، مع الانشغال بما ينفع ويُعمِّر في مواجهة ما يُخرِّب ويدمِّر.
- الأمر بدق حد السيف وتعطيله واعتزال الفرق المتناحرة في زمان الفتنة، مع تسمية الاعتزال نجاةً على سبيل المجاز المرسل، لأن الاعتزال محقق للنجاة، من غير شك.
- الطباق المسوّي بين القاتل والمقتول في وجوب دخولهما النار، جزاء حملهما السلاح على بعضهما.

سادسا: حفل البيان النبوي كذلك بما ينبه إلى أن الإسلام في آخر الزمان سيكون غريبا، وسينال المتمسكين به فتن وابتلاءات شديدة، ليتسلح المؤمنون بالصبر ويزدادون حرصا على التمسك بتعاليم الدين في زمن الغربة والفساد، وذلك من خلال خصيصتين أسلوبيتين، هما:

- تشبيه غربة الإسلام في آخر الزمان بغربته عند بعثة الرسول (ﷺ)، مع وعد الغرباء بالجنة.
- أمر المسلم بالموت على الإيمان بالله واليوم الآخر، مع معاملة الناس بما يحب أن يعاملوه به، في وقت الفتن بصفة خاصة، وفي كل وقت بصفة عامة.

سابعا: يعد التنكير المهوِّل، والتشبيه الموضح، والأمر الناصح من أكثر الخصائص البلاغية وضوحا في حديث الرسول (ﷺ) عن الفتن، لا سيما في مقامي الدعوة إلى الاستعداد لها، والتوجيه إلى ما يجب فعله عند وقوعها.

يلي ذلك المجاز المُصوِّر، والطباق، والمقابلة، والتقسيم، لا سيما في مقام التحذير من إثارة الفتن أو السعي إليها، لما لها من خاصية الوضوح والإقناع. أما الكناية فكانت كذلك من الكثرة بمكان، سواء أكانت اصطلاحية، أم من باب الإشارات والتلميحات، والتلويحات.

ويعد الاستفهام من أقل الأساليب استعمالا، حيث لم يرد في الأحاديث التي تناولتها الدراسة في بيان النبي (ﷺ) سوى مرتين، ولعل السر في ذلك ما يلي:

أ- الرأفة والرحمة والحب الجارف الذي جبل عليه الرسول (ﷺ) لأمته أفراد وجماعات، والذي يستوجب أن تأتي لغته واضحة، ناصحة، هادية، لا سيما فيما يتوقع منه حصول أضرار بالغة لهم.

ب- أن المقام شديد، ولا يحتمل الناس فيه شيئا من الإلغاز، أو ما يؤدي إلى مزيد من القلق والاضطراب.

*****

- **التوصيات:**

على الرغم من أنني أوقن بأني قمت لهذا العمل، وعملت فيه قدر الوسع والطاقة إلا أنني أراه لا يعدو أن يكون مقدمة لفقه حديث الرسول (ﷺ) عن الفتن، لأن حديثه (ﷺ) عن أنواعها يحتاج دراسات مستفيضة تقف مع بيانه عن كل نوع بالدرس والتحليل والمقارنة، ومن ثم فإن هذه الدراسة توصي العاملين في مجال البحث البلاغي بتناول الموضوعات التالية:

- حديث الرسول (ﷺ) عن أنواع الفتن وأصنافها، كفتنة المال، وفتنة المنصب، وفتنة المرأة، وفتنة الأولاد، وفتن الدار الآخرة، مع إبراز ما لكل نوع منها من خصائص بلاغية وسمات أسلوبية، والمقارنة بين طرائق الرسول التعبيرية عنها، مع تعليل ذلك إن أمكن.
- بناء الجملة الواقعة بعد الأمر والنهي في القرآن الكريم والحديث النبوي، أو في كل منهما على حده.
- قول النبي (ﷺ) "اللهم هل بلغت اللهم فاشهد" سياقاته ودلالاته.
- دلالة الخبر على الأمر والنهي في البيان النبوي ... سياقاته وأسراره.

ثبت

بالمصادر والمراجع

- أثر التشبيه في تصوير المعنى "قراءة في صحيح مسلم" د. عبدالباري طه سعيد – الطبعة الأولى.
- إرشاد الساري شرح صحيح البخاري للقسطلاني – مطبعة بولاق – مصر.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي– الطبعة الرابعة– دار إحياء التراث العربي– بيروت.
- أساليب الإنشاء الطلبي و طرق إفادتها غير معانيها الحقيقية د. محمود موسى حمدان– مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية العدد الثاني عشر.
- الاستفهام القرآنى دقائق ورقائق د/ محمود توفيق سعد– مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية– العدد التاسع.
- إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض – الموقع الإلكتروني للمكتبة الشاملة.
- الإيضاح لتلخيص المفتاح للخطيب القزويني بتعليق الشيخ عبدالمتعال الصعيدي – طبعة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م – مكتبة الآداب– مصر.
- البيان والتبيين للجاحظ – الطبعة الأولى ١٩٦٨م– دار صعب – بيروت.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور– الطبعة الأولى١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م– مؤسسة التاريخ العربي– بيروت.
- التصوير البياني د. محمد أبوموسى– الطبعة الثانية١٤٠٠هـ/١٩٨٠م– مكتبة وهبة.

- الجنى الداني في حروف المعاني لأبي القاسم المرادي- تحقيق/ فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل – الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م – دار الآفاق الجديدة – بيروت.
- الخصائص لابن جنى تحقيق محمد على النجار- الطبعة الثانية – دار الهدى للطباعة والنشر – بيروت.
- دراسات منهجية في علم البديع د. الشحات محمد أبوستيت- الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م – دار خفاجي للطباعة والنشر – القليوبية – مصر.
- دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى – الطبعة الثانية – ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧م – مكتبة وهبة.
- دلائل الإعجاز – عبدالقاهر الجرجاني – تحقيق محمود شاكر – الطبعة الثالثة – ١٤١٣هـ/١٩٩٢م – مطبعة المدني – السعودية.
- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين – محمد بن علي الصديقي الشافعي، بدون.
- الرجولة في القرآن موقعا وبلاغة د. صبحي المليجي – بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية – العدد الثامن والعشرون- ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
- سبل السلام شرح بلوغ المرام- محمد بن اسماعيل الصنعاني – الطبعة الرابعة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠- مكتبة مصطفى الحلبي.
- شرح الكرماني على البخاري – الطبعة الثانية – دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- شرح المعلقات السبع للزوزني – الطبعة الأولى- دار إحياء التراث العربي.

- صحيح البخاري – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م – دار الشعب – القاهرة.
- صحيح مسلم – دار الجيل – بيروت.
- صورة الأمر والنهى في الذكر الحكيم د. محمود توفيق سعد- الطبعة الأولى ١٤١٣ه/١٩٩٣م – مطبعة الأمانة.
- العين للخليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق المخزومي والسامرائي- دار ومكتبة الهلال.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري- ابن حجر العسقلاني – طبعة ١٣٧٩هـ- دار المعرفة – بيروت.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير- للمناوي- الطبعة الأولى – ١٤١٥هـ/١٩٩٤م- دار الكتب العلمية- بيروت.
- الفوائد العشر من حديث حذيفة – أبو سيف خليل بن إبراهيم العبيدي العراق – بدون.
- كشف المشكل من الصحيحين لابن الجوزي- تحقيق علي حسين البواب ١٤١٨هـ/١٩٩٧م- دار الوطن – الرياض.
- لسان العرب لابن منظور- الطبعة الأولى – دار صادر بيروت.
- المجازات النبوية للشريف الرضي- شرح د. عبدالرءوف محمد الزيتي- منشورات مكتبة بصيرتي – قم.
- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح – أبو الحسن عبيد الله بن محمد المباركفوري- الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م – إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند.

- مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي - تحقيق/ نعيم زرزور- الطبعة الثانية١٤٠٧ه / ١٩٨٧م- دار الكتب العلمية- بيروت.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق د. محمد أحمد خلف الله - مكتبة الأنجلو.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم أبو العبَّاس أحمَدُ الأنصاريُّ القرطبيُّ ، بدون.
- مقاييس اللغة لأحمد بن فارس تحقيق عبدالسلام هارون - طبعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م- نشر اتحاد الكتاب العرب.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي- الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي - طبعة ١٤١٥هـ- دار الكتب العلمية - بيروت.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٠١
تعريف الفتن	١٠٥
المبحث الأول: الخصائص البلاغية في الدعوة إلى الاستعداد للفتن	١٠٧
المبحث الثاني: الخصائص البلاغية في التعريف بأسباب الفتن والتحذير من إثارتها أو المشاركة فيها	١٣٤
المبحث الثالث: الخصائص البلاغية في التوجيه إلى ما يجب فعله عند وقوع الفتن	١٦٢
الخاتمة	١٩٧
النتائج	١٩٧
التوصيات	٢٠٠
ثبت بالمصادر والمراجع	٢٠١
فهرس الموضوعات	٢٠٥